

نسيم الهداية

- تفسير سورة الممتحنة
- وصايا رسول الله القِيَمَة لابن مسعود

المجلد الثالث

مهرجان المصطفى الدولي للقرآن والحديث

الفصل الأول:

تفسير سورة الممتحنة

محتوى السورة الممتحنة:

تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:
القسم الأول: يتحدّث عن موضوع «الحبّ في الله» و «البغض في الله»، و ينهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و يدعو المسلمين لكي يستلهموا من سيرة الرّسول العظيم إبراهيم عليه السّلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه أزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئي، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى في هذا المجال و يتكرّر هذا المعنى في نهاية السورة، كما في بدايتها.
القسم الثاني: يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة و ضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاما اخرى في هذا الصدد. و إختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص و الامتحان التي وردت في الآية العاشرة من هذه السورة.
كما ذكر اسم آخر لهذه السورة و هو (سورة المودة) و ذلك بلحاظ النهي عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و قد أكّدت عليه السورة كثيرا.

فضيلة تلاوة سورة الممتحنة:

ورد عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الممتحنة كان المؤمنون و المؤمنات له شفعاء يوم القيامة».
و جاء في حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين عليه السّلام: «من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه و نوافله، امتحن الله قلبه للإيمان، و نور له بصره، و لا يصيبه فقر أبدا، و لا جنون في بدنه و لا في ولده».
و من الواضح أنّ كلّ هذه النعم و الألفاف الإلهية تكون للأشخاص الذين يجسّدون مفاهيم الآيات التي وردت في هذه السورة في مجال الحبّ في الله و البغض في الله و الجهاد في سبيله، و يطبّقون محتواها، و لا يكتفون بالتلاوة السطحية الفارغة من محتوى الروح، و البعيدة عن العلم و العمل.

سورة الممتحنة : الآيات ١ الى ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا
جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي
سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِئُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ
مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ تُكْفُرُوا ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

سبب النزول

صرح أغلب المفسرين (لكن باختلاف يسير) بأن هذه الآيات - أو الآية الأولى بصورة أخص - نزلت في
حاطب بن أبي بلتعة. و في هذا الصدد نذكر ما أورده العلامة الطبرسي في مجمع البيان حول ذلك حيث
يقول: «إن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة بعد
بدر بستين، فقال لها رسول الله ﷺ: أ مسلمة جئت؟

قالت: لا. قال: أ مهاجرة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي و
قد ذهب موالي و احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني و تكسوني و تحملوني. قال: فأين أنت
من شباب مكة؟ و كانت مغنية نائحة، فقالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر (و هذا يدل على عمق النازلة
التي نزلت بمشركي قريش في بدر) فحث رسول الله ﷺ عليها بني عبد المطلب فكسوها و حملوها
و أعطوها نفقة، و كان رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة و كتب معها كتابا
إلى أهل مكة و أعطاها عشرة دنانير و كساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة و كتب في
الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم.

فخرجت سارة و نزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل، فبعث رسول الله ﷺ عليا و عمرا و عمر و
الزبير و طلحة و المقداد بن الأسود و أبا مرثد و كانوا كلهم فرسانا و قال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة
خاخ فان بها ضلعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك
المكان، فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلقت بالله ما معها من كتاب، فنحوها و فتشوا متاعها فلم يجدوا معها
كتابا، فهموا بالرجوع، فقال علي ﷺ: و الله ما كذبنا و لا كذبنا، و سل سيفه و قال: أخرجي الكتاب و

إِلَّا وَاللَّهِ لَأُضْرِبَنَّ عُنُقَكَ. فَلَمَّا رَأَتْ الْجَدَّ أَخْرَجَتْهُ مِنْ ذَوَابَّتِهَا، فَرَجَعُوا بِالْكِتَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَى حَاطِبِ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُ الْكِتَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ وَ لَا غَشَشْتُكَ مِنْذُ نَصَحْتُكَ، وَ لَا أَحْبَبْتُهُمْ مِنْذُ فَارَقْتُهُمْ، وَ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا وَ لَهُ بِمَكَّةَ مِنْ يَمْنَعٍ عَشِيرَتَهُ وَ كُنْتُ عَرِيرًا فِيهِمْ (أَيَّ غَرِيبًا) وَ كَانَ أَهْلِي بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدهُمْ يَدًا، وَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ بِهِمْ بِأَسْهٍ وَ أَنْ كِتَابِي لَا يَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا. فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ عَذَرَهُ، فَقَامَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَ قَالَ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ مَا يَدْرِيكَ يَا عَمْرُ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَغَفَرَ لَهُمْ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. وَ كَيْفِيَّةُ الْعِلَاقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَحَكَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَةٍ، وَ الْمُشْرِكِينَ وَ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَ التَّأْكِيدُ عَلَى الْإِغَاءِ وَ تَجَنُّبِ أَيْ وَلَاءٍ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ.^١

التفسير

نتيجة الولاء لأعداء الله

علمنا ممَّا تقدَّم أنَّ سبب نزول الآيات السابقة هو التصرف المشين الذي صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبي بلتعة) و رغم أنَّه لم يكن قاصدا التجسس إلَّا أنَّ عمله نوع من إظهار المودة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات مستقبلا و تنهاهم عنها. يقول سبحانه في البداية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ مُؤَكِّدًا أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَحَدَهُمُ هُمُ الَّذِينَ يَضْمُرُونَ الْعَدَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْحَقْدُ عَلَيْهِمْ، وَ مَعَ هَذَا التَّصَوُّرِ فَكَيْفَ تَمْدُونُ يَدَ الصَّدَاقَةِ وَ الْوَدَّ لَهُمْ؟ وَ يَضِيفُ تَعَالَى: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ»^٢

١. مجمع البيان، جلد ٩، صفحہ ٢٦٩، بتلخیص مختصر، كما نقل هذا في سبب النزول: البخاری في صحيحه، جلد ٩، صفحہ ١٨٥، والفخر الرازی، و ورد كذلك في تفسير روح المعاني، و روح البیان، و في الظلال، و القرطبي، و المراغي، و في تفاسير اخرى باختلاف.

٢. جملة: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» قالوا: إِنَّهَا حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ (لَا تَتَّخِذُوا) كما قيل: إِنَّهَا جُمْلَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ (الْكَشَافُ، جلد ٤، صفحہ ٥١٢). الباء في (المودة) إمَّا زائدة للتأكيد كما في قوله تعالى: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أَوْ أَنَّهَا سَبَبِيَّةٌ بِحذف المفعول الذي تقديره: (تلقوا إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التي بينكم و بينهم) (الكشاف أيضا).

إنهم يخالفونكم في العقيدة، كما أنهم شنّوا عليكم الحرب عملياً، و يعتبرون إيمانكم بالله - الذي هو أكبر فخر لكم و أعظم قداسة تجلّلكم - غاية الجرم و أعظم الذنب، و لهذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم و شتتوكم من بلادكم .. و مع هذه الأعمال التي مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودة لهم، و السعي لإنقاذهم من يد العدالة و الجزاء الإلهي على يد المقاتلين المسلمين المقتدرين؟ ثم يضيف القرآن الكريم موضحاً: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ اتَّبِعْتَ مَرْضَاتِي»^١ فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء و الودّ.

فإذا كنتم ممن تدعون حبّ الله حقاً، و هاجرتم من دياركم لأجله سبحانه و ترغبون في الجهاد في سبيله طلباً لرضاه تعالى، فإنّ هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء الله سبحانه. ثم يضيف عزّ و جلّ للمزيد من الإيضاح فيقول: «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَغْلَنْتُمْ»^٢

و بناء على هذا فما عسى أن يغني الإخفاء و هو واقع بعلم الله في الغيب و الشهود؟ و في نهاية الآية نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذي أمر به الله. سبحانه بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ فَعْدٌ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

فمن جهة انحراف عن معرفة الله تعالى بظنه أنّ الله لا يعلم و لا يرى ما يصنع، و كذلك انحراف عن طريق الإيمان و الإخلاص و التقوى، حينما يعقد الولاء و تقام أواصر المودة مع أعداء الله، و بالإضافة إلى ذلك فإنّه وجه ضربة قاصمة إلى حياته حينما أفشى أسرار المسلمين إلى الأعداء، و يمثل ذلك أقيح الأعمال و أسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل و يقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإيمان و القداسة.

و في الآية اللاحقة يضيف سبحانه للتوضيح و التأكيد الشديد في تجنب موالاتهم: «إِنْ يَنْقُضْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالسُّوءِ»^٣

١. يعتقد بعض المفسرين أنّ هذه الجملة الشرطية لها جزء محذوف يستفاد من الجملة السابقة تقديره: (و إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي و ابتغاء مرضاتي لا تتولّوا أعدائي).

٢. الجملة أعلاه جملة استثنائية. التعبير هنا ب (ما أخفيتم) عوض (ما أسررتم) جاء تأكيداً للمبالغة، لأنّ الإخفاء مرحلة أعمق من السرّ (تفسير الفخر الرازي نهاية الآيات مورد البحث).

٣. ينقضكم من مادّة: (نقض ثقافة) بمعنى المهارة في تشخيص أو إنجاز شيء ما، و لهذا السبب تستعمل - أيضاً - بمعنى الثقافة أو التمكن و التسلّط المقترن بمهارة على الشيء.

أنتم تكونون لهم الودّ في الوقت الذي يضمرون لكم حقدا و عداوة عميقة و متأصلة، و إذا ما ظفروا بكم فإنهم لن يتوانوا عن القيام بأي عمل ضدكم، و ينتقمون منكم و يؤذونكم بأيديهم و بالسنتهم و بمختلف وسائل المكر و الغدر فكيف- إذن- تتألمون و تحزنون على فقدانهم مصالحهم؟ و الأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث في ردكم عن دينكم و إسلامكم، و العمل على تجريديكم من أعظم مكسب و أكبر مفخرة لكم، و هي حقيقة الإيمان و ودوا لو تكفروا و هذه أوجع ضربة و أعظم مأساة و أكبر داهية يريدون إلحاقها بكم.

و في آخر آية من هذه الآيات يستعرض سبحانه الجواب على «حاطب بن أبي بلتعة» و من يسايره في منهجه من الأشخاص، حينما قال في جوابه لرسول الله عن السب الذي حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمين لمشركي مكة، حيث قال بلتعة: أهلي و عيالي في مكة، و أردت أن أ منع عنهم الأذى و أصونهم بعلمي هذا (و اتخذ عند أهلها يدا) يقول تعالى: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ» و ذلك لأنّ الأرحام و الأولاد المشركين سوف لن يجلبوا خيرا و عزة في الدنيا و لا نجاة في الآخرة. إذن لماذا تتصرفون و تعملون مثل هذا العمل الذي يوجب سخط البارئ، و ذلك بالتقرب من أعداء الله و إرضاء المشركين و البعد عن أوليائه تعالى و جلب الضرر على المسلمين؟

ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ»^١

و هذا تأكيد على أن مقام أهل الإيمان هو الجنة، و أن أهل الكفر يساقون إلى جهنم و بئس المصير، و هو بيان آخر و توضيح لما تقدّم سابقا من أن عملية الفرز و الفصل ستكون فيما بينكم، حيث ستقطع الأواصر بصورة تامة بين الأرحام بلحاظ طبيعة الإيمان و الكفر الذي هم عليه، و لن يغني أحد عن الآخر شيئا، و هذا المعنى مشابه لما ورد في قوله تعالى: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ»^٢

و في نهاية الآية يحذّر الجميع مرة أخرى بقوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». إنه عالم بنياتكم، و عالم بالأعمال التي تصدر منكم، سواء كانت في حالة السرّ أو العلن، و إذا كانت المصلحة الإلهية تقتضي عدم إفشاء أسراركم أحيانا كما في حادثة حاطب بن أبي بلتعة، فالأنها لحكمة أو مصلحة يراها سبحانه، و ليس لأنّه لا يعلم بها أو تخفى عليه خافية.

١. يعتقد أكثر المفسرين أن: (يوم القيامة) متعلّقة ب (يفصل) إلّا أن البعض الآخر يعتقد بأنّها متعلّقة ب (لن تنفعكم) و النتيجة أن كلا الرأيين متقاربان بالرغم من أن المعنى الأول أنسب حسب الظاهر. كما أن الملاحظ أن البعض فسّر (يفصل) بمعنى فصل شيئين بالمعنى المتعارف، و البعض الآخر اعتبرها من (فصل) بمعنى الحكم و القضاء بين اثنين، إلّا أن المعنى الأول أصح.

٢. الآية ٣٤-٣٦. عيس.

و في الحقيقة إنّ علم الله بالغيب و الشهود، و السرّ و العن، و سيلة مؤثّرة و عظيمة في تربية الإنسان حيث يشعر دائماً بأنّه في محضر البارئ عزّ و جلّ الرقيب على قوله و عمله، بل حتّى على نيّته، و هنا تصدق مقولة أنّ التقوى وليدة المعرفة التامّة بالله عزّ وجلّ.

سورة الممتحنة : الآيات ٤ الى ٦

فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٥﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٧﴾

التفسير

أسوة للجميع

إن منهج القرآن (من أجل التأكيد على تعاليمه القيّمة) يعتمد في كثير من الموارد طريقة الاستشهاد بنماذج أساسية في عالم الإنسانية و الحياة، و بعد التشديد السابق الذي مرّ بنا خلال آيات السابقة في تجنّب عقد الولاء لأعداء الله، يتحدّث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام و منهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقوام و خصوصا العرب منهم. قال تعالى: «فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»^١

إن حياة إبراهيم عليه السلام الذي هو كبير الأنبياء، تلهمنا دروس العبودية لله، و الطاعة و الجهاد في سبيله، و الوله و الحب لذاته المقدّسة، إن هذا النبي العظيم الذي كانت الامّة الإسلامية من بركة دعائه، و هي معترّة بالتسمية التي أطلقها عليهم، هو لكم أسوة حسنة في هذا المجال.

و المراد من تعبير الَّذِينَ مَعَهُ هم المؤمنون الذين ساروا برفقته في هذا الطريق بالرغم من قلة عددهم، و هنا رأي آخر في تفسير الَّذِينَ مَعَهُ يرى أن المقصود هم الأنبياء الذين كانوا يشاركونه بالرأي، أو أن المقصود هم الأنبياء المعاصرون له، و هو احتمال مستبعد، خاصّة إذا أخذنا ما يناسب المقام في تشبيه القرآن الكريم لرسول الإسلام محمد بإبراهيم عليه السلام، و تشبيه المسلمين بأصحابه و أعوانه.

١. ذكر المفسرون احتمالات عدة في إعراب هذه الجملة، و الظاهر أن (أسوة حسنة) اسم كان، و (لكم) خبرها و (في إبراهيم) متعلق ب (أسوة حسنة) و لا بد من الالتفات ضمنا إلى أن أسوة بمعنى التأسى و الاقتداء الذي يكون أحيانا بالأعمال الجيدة و اخرى بالسيئة و لذا قيدت هنا ب (الحسنة).

و جاء في التواريخ أيضا أن جماعة في «بابل» آمنوا بإبراهيم عليه السلام بعد مشاهدة المعاجز التي ظهرت على يديه، و صاحبه في الهجرة، قال ابن الأثير في الكامل (ثم إن إبراهيم و الذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجرا).^١
ثم يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^٢

و هكذا يكون الموقف القاطع و الحاسم من جانب المؤمنين إزاء أعداء الله، بقولهم لهم: إننا لا نرتضيتكم و لا نقبلكم، لا أنتم و لا ما تؤمنون به من معتقدات، إننا نبتعد و نفر منكم و من أصنامكم التي لا قيمة لها. و مرة أخرى يؤكدون مضيئين: «كفرنا بكم»، و الكفر هنا هو كفر البراءة الذي أشير له في بعض الروايات ضمن ما ورد في تعدد أقسام الكفر الخمسة.^٣

و يضيفون للمرة الثالثة مؤكدين بصورة أشد: وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ. و بهذا الإصرار و بهذه القاطعية و بدون أي تردد أو مواربة يعلن المؤمنون انفصالهم و ابتعادهم و نفرتهم من أعداء الله حتى تؤمنوا بالله وحده، و هم مستمرّون في موقفهم و إلى الأبد و لن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلّا إذا غيّر الكفار مسارهم و تراجعوا عن خطّ الكفر إلى الإيمان. و لأنّ هذا القانون العامّ كان له استثناء في حياة إبراهيم عليه السلام يتجسّد ذلك بإمكانية هداية بعض المشركين حيث يقول سبحانه معقبا: إِنْ هَؤُلَاءِ قَطَعُوا كُلَّ ارْتِبَاطٍ لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ حَتَّى الْكَلَامِ الْوَدُودِ وَ الْمَلَائِمِ: إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

إنّ هذا الاستثناء- في الحقيقة- كان في مسألة قطع كل ارتباط مع عبدة الأصنام من قبل إبراهيم عليه السلام و أصحابه، كما أنّ هذا الاستثناء كانت له شروطه و مصلحته الخاصة، لأنّ القرائن تظهر لنا أنّ إبراهيم عليه السلام كان يرى في عمّه (آزر) استعدادا لقبول الإيمان.

و لما كان (آزر) قلقا من أاثام سابقته الوثنية و عبادته للأصنام أوعده إبراهيم عليه السلام أنّه إذا تبنى طريق التوحيد فإنّه عليه السلام سيستغفر له الله سبحانه، و قد عمل بما وعده به، إلّا أنّ آزر لم يؤمن و بقي على ضلاله، و عند ما اتّضح لإبراهيم أنّه عدو الله و سوف لن يؤمن أبدا، لم يستغفر له ثانية و قطع علاقته به.

١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، جلد ١، صفحہ ١٠٠.

٢. «براء» جمع «بريء» مثل «ظرفاء» - ظريف.

٣. اصول الكافي طبقا لنقل نور الثقلين، جلد ٥، صفحہ ٣٠٢.

و لما كان المسلمون مطلعين على منهج إبراهيم عليه السلام في تعامله مع «آزر» بصورة إجمالية، فقد كان من المحتمل أن يكون هذا الموقف موضع احتجاج لأشخاص مثل (حاطب بن أبي بلتعة) حيث كانوا يقيمون العلاقات و الارتباطات السرية مع الكفار، و لهذا فالقرآن الكريم يقطع الطريق على مثل هذه التصورات و يعلن - صراحة - أن هذا الاستثناء قد تمّ تحت شروط خاصة، و كان أسلوبا لاستدراج (آزر) إلى الهدى و إدخاله في الإيمان، و لم يكن لأهداف دنيوية أنية أو مصلحة وقتية، لذا يقول عزّ و جلّ في بيان هذا المعنى: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ»^١

إلا أن بعض المفسرين يرى أن هذا الأمر كان استثناء من التأسي ب (إبراهيم عليه السلام)، و قالوا يجب الاقتداء به في جميع الأمور إلا في استغفاره لعمه آزر. إلا أن هذا المعنى بعيدا جدا لأنه:

أولا: كان عليه السلام أسوة في جميع الأمور و من ضمنها إتباع هذا المنهج، و ذلك بلحاظ أن الشروط التي توفّرت في (آزر) توفّرت أيضا في بعض المشركين و عند ذلك لا بدّ من إظهاره المودة لهم و تهيئة الأجواء الطيبة لهم، و جذبهم للإيمان.

و ثانيا: أن إبراهيم عليه السلام نبي معصوم من أنبياء الله العظام و من المجاهدين اللامعين، و أعماله كلّها أسوة للمؤمنين، و عندئذ لا داعي لاستثناء هذه المسألة من التأسي به فيها.

و خلاصة القول أن إبراهيم عليه السلام و أصحابه كانوا من أشدّ المخالفين و المحاربين للشرك، و لا بدّ لنا من الاقتداء بهم و أخذ الدروس و العبر من سيرتهم، بما في ذلك ما يتعلّق بموقفه من «آزر» إذا توفّرت لنا نفس الشروط و الخصوصيات.^٢

و بما أن محاربة أعداء الله، و الصرامة و الشدّة معهم - خصوصا مع تمتّعهم بقدرة ظاهرية - سوف لن تكون فاعلة إلا بالتوكّل على الله تبارك و تعالى، يضيف سبحانه في نهاية الآية: «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَ إِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

و نلاحظ ثلاثة أمور في هذه العبارة:

١. التوبة، الآية ١١٤.

٢. يتضح لنا ممّا تقدّم أن الاستثناء هنا متّصل، و المستثنى منه جملة محذوفة يدلّ عليها صدر الآية، و تقديرها: إن إبراهيم و قومه تبرّأوا منهم، و لم يكن لهم قول يدلّ على المحبة إلا قول إبراهيم، و طبقا للتفسير الثاني فإن الاستثناء سوف يكون منقطعا، و هذا بحذ ذاته إشكال آخر عليه.

الأمر الأول: هو التوكل، الثاني هو: التوبة و الإنابة، الثالث: التأكيد على حقيقة الرجوع النهائي في كل شيء إليه سبحانه، حيث أن كل أمر من هذه الأمور يكون علّة و بنفس الوقت معلولاً للآخر، فالإيمان بالمعاد و الرجوع النهائي إليه سبحانه يوجب التوبة، و التوبة تحيي روح التوكل في النفس الإنسانية.^١ و في الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهمّ و حسّاس لإبراهيم عليه السلام و أصحابه في هذا المجال، حيث يقول تعالى: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا.» من المحتمل أن يكون ما ورد في الآية إشارة إلى عمل «حاطب بن أبي بلتعة» و احتمال صدور شبيهه من أشخاص جهلة يكونون سببا في تقوية الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصورون أنهم يعملون لمصلحة الإسلام، أو إن المراد في الحقيقة دعاء بأنّه لا تجعلنا نفع في قبضة الكافرين فيقولوا: أن هؤلاء لو كانوا على الحق ما غلبوا، و يؤدّي هذا التوهّم إلى ضلالهم أكثر.

و هذا يعني أن المسلمين ما كانوا يأبهون بالخوف من خشية على مصالحهم أو على أنفسهم، بل لكي لا يقع مبدأ الحق في دائرة الشكّ و يكون الانتصار الظاهري للكفار دليلاً على حقانيتهم و هذا هو منهج الإنسان المؤمن الراسخ في إيمانه، حيث أن جميع ما يقوم به و يضحي في سبيله لا لأجل نفسه، بل لله سبحانه، فهو مرتبط به وحده، قاطع كل علاقة بما سواه، طالب كل شيء لمرضاته.

و يضيف في نهاية الآية: «وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.»

فقد ترك يا الله لا تقهر، و حكمتك نافذة في كل شيء.

إنّ هذه الجملة قد تكون إشارة لطلب المغفرة من الله سبحانه و العفو عن الزلل في حالة حصول الميل النفسي و الحبّ و الولاء لأعداء الله. و هذا درس لكل المسلمين كي يقتدوا بهؤلاء. و إذا ما وجد بينهم شخص منحرف ك «حاطب» فليستغفروا ربهم و لينيبوا إليه. و مرة أخرى يؤكد سبحانه في آخر آية من هذه الآيات على نفس الأمر الذي ذكر في أول آية، حيث يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ»^٢

لقد كانوا لنا أسوة، ليس فقط في موقفهم ضدّ منهج الكفر و عبدة الأوثان، بل هم أسوة لنا في الدعاء بين يدي البارئ عزّ و جلّ، و قدوة لنا في طلب المغفرة منه كما استعرضت الآيات السابقة نماذج في ذلك. إنّ هذا الاقتداء في حقيقته يتمثل في الذين تعلّقوا بالله سبحانه، و نور الإيمان بالمبدأ و المعاد

١. يتضح ممّا قلناه أنّ هذه الجملة هي كلام إبراهيم عليه السلام و أصحابه، بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتمل كونها جملة مستقلة و نزلت بعنوان إرشاد للمسلمين ضمن هذه الآيات، و هو احتمال بعيد.

٢. قال بعض المفسّرين: إنّ (لمن) في الآية أعلاه «بدل» عن (لكم): (تفسير الفخر الرازي، و روح المعاني، في نهاية هذه الآيات).

قلوبهم، و نهجوا منهج الحقّ و تحرّكوا في طريقه و بدون شكّ فإنّ هذا التأسّي و الاقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه في النهاية قوله: **وَمَنْ يَقُولْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** و ذلك أنّ عقد الولاء مع أعداء الله يقوّي عودهم و شوكتهم و بالتالي إلى هزيمة المسلمين، و إذا تسلّطوا عليكم فسوف لن يرحموا صغيركم و كبيركم.^١

بحوث

١- نماذج خالدة

إنّ المشاريع العملية غالباً ما تكون منبثقة عن قناعات تسبقها، لأنّ العمل عادة يعبر عن تجسيد حالة الإيمان العميق للإنسان بما يقوم به، و يكون مجسّداً لأقواله و أفكاره و متبنياته، و الحديث يخرج من القلب لا بدّ أن يكون موضع تأثّر و تفاعل قائلة نفسه به.

و في الغالب فإنّ وجود القدوة في حياة البشر مؤثّر في تربيتهم و توجيههم، و لهذا السبب فإنّ النبي الأعظم ﷺ و الأئمة المعصومين عليهم السلام، و بقيّة الأنبياء الكرام عليهم السلام كانوا موضع هداية البشرية من خلال أعمالهم و التزاماتهم، لذا فإنّنا حينما نتحدّث عن «السنة»، التي هي عبارة عن (قول) المعصوم و (فعله) و (تقريره)، أي أنّ كلام و عمل و سكوت المعصوم كلّه حجة و دليل، لا بدّ من الالتزام به، و لهذا السبب فإنّ (العصمة) شرط أساسي لكلّ الأنبياء و الأئمة عليهم السلام كي يكونوا لنا أسوة و قدوة في جميع المجالات.

و القرآن الكريم يؤكّد هذه المسألة المهمّة و الأساسية حيث يعرض للمؤمنين النماذج في هذه المجالات و من جملتها ما جاء في هذه الآيات، حيث يتحدّث عن النبي إبراهيم عليه السلام و أصحابه مرتّين، كما يعرض القرآن الكريم في سورة الأحزاب شخص الرّسول الأكرم كقدوة و أسوة للمسلمين. «الأسوة» هنا لها معنى مصدري، بمعنى التأسّي و الاقتداء العملي، بالرغم من أنّها تفهم في الاستعمالات المتداولة بأنّها تعني الشخص موضع التأسّي.

في غزوة الأحزاب الرهيبة عرض القرآن الكريم النبي محمّد كنموذج و أسوة في الاستقامة و الإيمان و الإخلاص و التحلّي بالهدوء و الصبر في غزوة مليئة بالمخاطر، في وقت كان المسلمون موضع تمحيص، و تعرّضوا فيه إلى زلزال عصيب، و طبعاً فإنّ هذه المعنى لا ينحصر في هذه المناسبة فحسب، بل إنّ شخصية رسولنا الأكرم قدوة و أسوة عظيمة لتربيتنا في كلّ زمان و مكان.

١. بناء على هذا فإنّ جملة (من يتولّى) جملة شرطية، و لها جزء محذوف تقديره: من يتولّى فقد أخطأ حظّ نفسه و أذهب ما يعود نفعه إليه (مجمع البيان، جلد ٩، صفحہ ٢٧٢).

إنَّ شعار: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم، و لا تكونوا دعاة بألسنتكم»^١ المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام دليل على ضرورة أن يكون المسلمون - أجمع و كل في مجاله - أسوة و قدوة للآخرين، و بلسان العمل يمكن أن يعرف المسلمون الإسلام للعالم، و حينئذ يمكن أن يستوعب الإسلام العالم أجمع.

٢- الله غني عن الجميع

أكد القرآن الكريم مرارا على نقطة مهمّة، و هي أنّ الله تعالى إذا أمر الإنسان بالالتزام بأحكام - و تكاليف معيّنة، فإنّ جميع منافعها تعود بالخير و المصلحة عليه، بالرغم من المشقّة أحيانا في تطبيق هذه الأحكام و التكاليف. ذلك لأنّ الله تعالى ليس محتاجا لأي شيء في عالم الوجود ليستعين بنا عليه، كما أنّه ليس لديه أي نقص في أي شيء، إضافة إلى أنّ الإنسان لا يملك شيئا ليعطيه. بل كلّ ما لديه فهو لله تعالى.

و قد جاء في الأحاديث القدسية: «يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنّ أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أنّ أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

يا عبادي لو أنّ أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندي إلّا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر.

يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثمّ أوفيكهم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلو من إلّا نفسه»^٢

٣- الأصل في العلاقات الرسالية: «حب في الله و بغض في الله»

إنّ أعمق رابطة تربط أبناء البشرية مع بعضهم هي الرابطة العقائدية، حيث تبتني عليها سائر العلاقات الأخرى.

و لقد أكّد القرآن الكريم مرارا على هذا المعنى و هذا اللون من الارتباطات، و شجب صور الروابط القائمة على أساس الصداقة و الحميّة الجاهلية و المنافع الشخصية التي تكون على حساب مرتكزات المبدأ، إذ أنّ ذلك يعني الاهتزاز و التصدّع في بناء الشخصية الرسالية.

١. سفينة البحار، جلد ٢، صفحہ ٢٧٨، مادّة عمل.

٢. روح البيان، جلد ٩، صفحہ ٤٧٤.

و بالإضافة إلى ذلك فإنّ المعيار الأساس للإنسان هو الإيمان و التقوى، و لذا فإنّ إقامة العلاقات مع الأشخاص الذين يفقدون هذه المقومات أمر لا يقدم عليه الإنسان الملتزم و يحذر من الوقوع في شراكه، و لا بدّ من الرجوع إلى المعيار الإيماني في إقامة العلاقات وفق منهج الإسلام، و جعل العلاقة مع الله و الموقف من الله هو الحكم و الفصل في طبيعة هذه العلاقة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من أحبّ لله و أبغض لله و أعطى لله جلّ و عزّ فهو ممّن كمل إيمانه»^١ و نقرأ في حديث آخر عنه عليه السلام: «من أوثق عرى الإيمان، أن تحبّ في الله، و تبغض في الله، و تعطي في الله، و تمنع في الله»^٢.

و لمزيد من الاطلاع في مجال «الحبّ في الله و البغض في الله» يراجع التفسير الأمثل نهاية الآية (٢٢) من سورة المجادلة. و الأحاديث في هذا المجال كثيرة جداً و يراجع المجلد الثاني من كتاب اصول الكافي، باب الحبّ في الله، حيث نقل العلامة الكليني في هذا الباب (١٦) حديثاً حول هذا الموضوع.

١. أصول الكافي، جلد ٢، باب الحبّ في الله حديث (١، ٢).

٢. أصول الكافي، جلد ٢، باب الحبّ في الله، حديث (١، ٢).

سورة الممتحنة : الآيات ٧ الى ٩

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

التفسير

مودّة الكفار غير الحربين

يستمرّ الحديث في هذه الآيات المباركات تكملة للموضوعات التي طرحت في الآيات السابقة حول «الحب في الله و البغض في الله» و قطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أن قطع هذه الرابطة يوّلد فراغا عاطفيا بالنسبة للبعض من المسلمين، فإن المؤمنين الصادقين، و أصحاب رسول الله المخلصين آمنوا بهذا المنهج و ثبتوا عليه، و الله تعالى بشر هؤلاء ألا يحزنوا، لأن الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أن هذه الحالة سوف لن تستمر طويلا، حيث يقول سبحانه: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً».

و يتحقّق هذا الوعد و تصدق البشارة في السنة الثامنة للهجرة حيث منّ الله على المسلمين بفتح مكّة، و دخل أهلها جماعات جماعات في دين الإسلام الحنيف، مصداقا لقوله تعالى: «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً» و عند ذلك تتبدّد غيوم الظلمة و العداء و العناد من سماء حياتهم، و تشرق نفوسهم بنور الإيمان و حرارة الودّ و أجواء المحبة و الصداقة.

بعض المفسرين اعتبر هذه الآية إشارة إلى زواج الرسول الأكرم ﷺ من (أمّ حبيبة بنت أبي سفيان) التي كانت قد أسلمت و صحبت زوجها «عبيد الله بن جحش»^١ في هجرته للحبشة مع المهاجرين و مات زوجها هناك، فأرسل رسول الله ﷺ شخصا إلى النجاشي و تزوّجها، و لأنّ الزواج بين القبائل العربية كان له تأثير في تضييق دائرة العداء و بناء جسور المودّة بينهم، و هذه المسألة كان لها تأثير إيجابي على أبي سفيان و أهل مكّة.

١. عبيد الله بن جحش هو أخو عبد الله بن جحش، لم يبق على الإسلام بل اختار المسيحية في الحبشة، و لهذا السبب فإنّ أمّ حبيبة انفصلت عنه، أمّا أخوه (عبد الله) فقد بقى مسلما و كان من مجاهدي أحد، و استشهد في تلك الغزوة.

إلا أن هذا الاحتمال مستبعد، لأن هذه الآيات نزلت عند ما كان المسلمون على أبواب فتح مكة، ولأن «حاطب بن أبي بلتعة» كان يروم من إرسال رسالته إلى مشركي مكة إحاطتهم علما بعزم الرسول على فتح مكة، في الوقت الذي نعلم أن «جعفر بن أبي طالب» وأصحابه رجعوا إلى المدينة قبل فتح مكة (فتح خير).^١

و على كل حال، إذا تباعد بعض الناس عن خطأ الإسلام والمسلمين و كانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففي مثل هذه الحالة لا ينبغي اليأس، لأن الله تعالى قادر على كل شيء، و يستطيع تغيير ما في قلوبهم، فهو الذي يغفر الذنوب و الخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى في نهاية الآية: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

كلمة (عسى) تستعمل عادة في الموارد التي يؤمل فيها أن يتحقق شيء ما، و بما أن هذا المعنى يستعمل أحيانا توأما مع (الجهل) أو (العجز) فإن كثيرا من المفسرين فسروها بمعنى رجاء الآخرين من الله و ليس العكس، إلا أننا لا نرى تعارضا في أن يكون لهذا المصطلح المعنى الأصلي، و ذلك لأن الوصول إلى هدف معين لا بد له في أحيان كثيرة من وجود الشروط المناسبة، و إذا لم تستكمل هذه الشروط فإن هذه الكلمة تستعمل في مثل هذه الموارد.

و تبين الآيات اللاحقة شارحة و موضحة طبيعة علاقة المودة مع المشركين، حيث يقول سبحانه: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

و بهذه الصورة يقسم القرآن الكريم «المشركين» إلى فئتين: فئة: عارضوا المسلمين و وقفوا بوجههم و شهبوا عليهم السلاح و أخرجوهم من بيوتهم و ديارهم كرها، و أظهروا عداؤهم للإسلام و المسلمين في القول و العمل .. و موقف المسلمين إزاء هذه المجموعة هو الامتناع عن إقامة كل لون من ألوان علاقة المحبة و صلة الولاء معهم. و المصداق الواضح لهذه المجموعة هم مشركو مكة، و خصوصا سادات قريش، حيث بذل بعضهم كل جهدهم لحرب المسلمين و إيذائهم، و أعانوا آخرون على ذلك. و فئة أخرى: مع كفرهم و شركهم - لا يضمرون العدا لل المسلمين، و لا يؤذونهم و لا يحاربونهم و لم يشاركوا في إخراجهم من ديارهم و أوطانهم، حتى أن قسما منهم عقد عهدا معهم بالسلم و ترك العدا.

١. إن خلاصة هذه القصة قد نقلها كثير من المفسرين، و يمكن مراجعة شرحها في كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة، جلد

إنَّ الإحسان إلى هذه المجموعة و إظهار الحبِّ لهم لا مانع منه، و إذا ما عقد معهم عهد فيجب الوفاء به، و أن يسعى لإقامة علاقات العدل و القسط معهم و مصداق هذه الجماعة يتجسّد بطائفة (خزاعة) الذين كانوا قد عقدوا عهداً مع المسلمين على المسالمة معهم و ترك الخصام.

و بناء على ذلك فلا مجال لقول بعض المفسّرين من أنَّ هذه الآية منسوخة بما ورد في قوله تعالى: «فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»^١.

حيث أنَّ هذه الآية من سورة التوبة تتحدّث عن المشركين الذين نقضوا العهد و مارسوا أدواراً عدائية ضدَّ الإسلام و المسلمين بصورة علنية، و يتبيّن ذلك من خلال الاستدلال بالآيات اللاحقة التي تلي هذه الآية الكريمة.^٢

و قد ذكر بعض المفسّرين في حديثه حول هذه الآية أنَّ زوجة أبي بكر المطلقة أتت بهدايا لابنتها «أسماء» من مكّة، إلّا أنَّ ابنتها امتنعت عن قبولها، بل إنَّها امتنعت أيضاً حتّى من السماح لأمّها من دخول بيتها، فنزلت الآية أعلاه و أمرها رسول الله ﷺ أن تلتقي بأمّها و تقبل هديّتها و تكرمها و تحسن ضيافتها.^٣

و تبين لنا هذه الرواية أنَّ هذه الرواية أنَّ هذا الحكم لم يكن ليشمل أهل مكّة أجمع، حيث أنَّ أقلية منهم لم تكن تضمّر العداء للمسلمين، و لم يكن لهم موقف عدائي إزاء المسلمين، و بشكل عام فإنَّ الاستفادة من الآيات الكريمة حول طبيعة و كيفية العلاقة بين المسلمين و غيرهم هو (أصل كلّ و أساسي) لا يختصّ بذلك الوقت فقط، بل يمثّل خطأ عاماً لطبيعة هذه العلاقة في كلّ الأزمنة سواء اليوم أو غداً، في حياتنا المعاصرة و المستقبلية.

و واجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكلّ صلابة أمام أيّة مجموعة، أو دولة، تتخذ موقفاً عدائياً منهم أو تعيّن من أراد بالإسلام و المسلمين سوءاً و قطع كلّ صلة قائمة على أساس المحبة و الصداقة معهم.

أمّا إذا كان الكفّار في موقع محايد إزاء الإسلام و المسلمين، أو أنّهم متعاطفون معهم، عندئذٍ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنة و يرتبطوا و يباهم بروابط المودة على أن لا تكون بالصورة التي تكون بين المسلمين أنفسهم، و لا بالشكل الذي يؤدّي إلى تغلغلهم في صفوف المسلمين.

١. التوبة، الآية ٥.

٢. احتمل بعض المفسّرين أنَّ الآية تمثّل رخصة عقد الولاء بالنسبة للمؤمنين الذين كانوا قد قبلوا الإسلام، إلّا أنّهم بقوا في مكّة، و لم يهاجروا. إلّا أنَّ لحن الآيات يبيّن لنا أنَّ الحديث كان مختصّاً بغير المسلمين.

٣. روح البيان، جلد ٩، صفحہ ٤٨١، جاءت هذه الرواية في صحيح البخاري و كثير من كتب التفسير أيضاً باختلافات.

و إذا تغيّر موقف جماعة ما، أو دولة ما، و هي من الصنف الأوّل أو حصل عكس ذلك في موقف الصنف الثاني، فبدّلوا سيرتهم من المسالمة إلى المحاربة و العداء، فيجب أن يتغيّر معيار التعامل معهم حسب موقفهم الجديد و واقعهم الفعلي، و تبني معهم العلائق حسبما ورد من مفاهيم طبقاً للآيات أعلاه.

سورة الممتحنة : الآيات ١٠ الى ١١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَتَوَهُمَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَ سَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُنْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُنَّ فَاَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَ أَنْتُمْ اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

سبب النزول

قال بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآيات: إن رسول الله أمضى في الحديبية مع مشركي مكة عهداً، و كان من ضمن بنود هذا العهد أن من أتى رسول الله ﷺ من أهل مكة رده عليهم، و من أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله فهو لهم لا يردوه عليه، و كتبوا بذلك كتاباً وقّعوا عليه. في هذه الفترة جاءت (سبيعة بنت الحرث الأسلمية) مسلمة، و التحقت بالمسلمين في أرض الحديبية بعد الانتهاء من توقيع العهد، فأقبل زوجها و كان كافراً، فقال: يا محمد، اردد علي امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك و هذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية أعلاه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ... و أمرت بامتحان النسوة المهاجرات. قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج و لا رغبة عن أرض إلى أرض، و لا التماس دنيا، و ما خرجت إلّا حباً لله و رسوله. فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت بالله الذي لا إله إلّا هو على ذلك، فأعطى رسول الله زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يردّها عليه فكان رسول الله يرد من جاءه من الرجال، و يحبس من جاءه من النساء إذا امتحنهن^١ و يعطي أزواجهن مهورهن.

١. جاء سبب النزول أعلاه في كثير من كتب التفسير، و نحن اقتبسناه من مجمع البيان بتلخيص قليل، كما نقل الطبرسي هذا الحديث عن ابن عباس.

التفسير

تعويض خسائر المسلمين و الكفار

استعرضت الآيات السابقة موضوع «البغض في الله» و ما يترتب على ذلك من قطع أي صلة مع أعداء الله .. أما موضوع هذه الآيات فهو عن «الحب في الله» و عن طبيعة العلاقة مع الذين انفصلوا عن الكفر و ارتبطوا بالإيمان.

و ينصب الحديث في الآية الاولى - من هذه الآيات المباركات - عن النساء المهاجرات، حيث ضمت هذه الآية سبع نقاط تتعلق بالنساء المهاجرات، كما تناولت نقاطا أخرى تختص بالنساء المشرقات. النقاط التي تختص بالنساء المهاجرات هي:

١- إمتحان النساء المهاجرات، حيث يوجه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ».

فالأمر الأول هو إمتحان النساء المؤمنات، و بالرغم من تسميتهن بالمؤمنات إلا أن إعلان الشهادتين ظاهريا لا يكفي، فمن أجل المزيد من الاطمئنان على انسجام الظاهر مع الباطن كان الأمر بالامتحان للوثوق و التأكد. أما طريقة و أسلوب هذا الامتحان فكما مر بنا، و هو أن يستحلفن أن هجرتهن لم تكن إلا من أجل الإسلام، و أنها لم تكن بسبب بغض أزواجهن أو علاقة مع شخص آخر، أو حبا بأرض المدينة و ما إلى ذلك.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية إمتحان النسوة المهاجرات، و ذلك كما ورد في الآية الثانية عشرة من نفس السورة قال تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ».

و من الممكن أن يكون الكذب في الحلف أيضا، فيقول البعض خلافا لما يعتقد به، إلا أن التزام الكثير من الناس حتى المشركين في ذلك الزمان بمسألة البيعة و الحلف بالله كان سببا في تقليص دائرة غير الصادقين. و من هنا نلاحظ أن الامتحان المذكور بالرغم من أنه لم يكن دليلا قطعيا على الإيمان حقيقة، إلا أنه غالبا ما يكون كاشفا عن الحقيقة بصورة كبيرة. لذا يضيف سبحانه في العبارة التالية: الله أعلم بإيمانهن.

٢- يقول سبحانه في الأمر اللاحق: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ».

و رغم أن البند المثبت في (وثيقة صلح الحديبية) يشير إلى أن الأشخاص الذين أسلموا و هاجروا إلى المدينة يجب إرجاعهم إلى مكة، إلا أنه خاص بالرجال و لا يشمل النساء، لذا فإن رسول الله لم يرجع

أية امرأة إلى الكفار. وإلا فرجوع المسلمة إلى الكفار يمثل خطراً حقيقياً على وضعها الإيماني و ذلك بلحاظ ضعفها و حاجتها إلى الرعاية المستمرة.

٣- في ثالث نقطة التي هي في الحقيقة دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

فالإيمان و الكفر لا يجتمعان في مكان واحد، لأنَّ عقد الزواج المقدس لا يمكن أن يربط بين محوريين و خطيئين متضادين (خطأ الإيمان) من جهة و (الكفر) من جهة أخرى، إذ لا بد أن يكون عقد الزواج يشكّل نوعاً من الوحدة و التجانس و الانسجام بين الزوجين، و هذا ما لا يمكن أن يتحقّق نتيجة الاختلاف و التضادّ التي سيكون عليها الزوجان في حالة كون أحدهما مؤمناً و الآخر كافراً.

و نلاحظ في بداية صدر الإسلام حالات من هذا القبيل لزوجين أحدهما مؤمن و الآخر كافر، و لم ينه عنها رسول الله ﷺ حيث لم يزل المجتمع الإسلامي قلقاً و غير مستقرّ بعد، إلاّ أنّه عند ما تأصلت جذور العقيدة الإسلامية و ترسّخت مبادئها، أعطى أمراً بالانفصال التام بين الزوجين بلحاظ معتقدهما، و خاصّة بعد صلح الحديبية، و الآية- مورد البحث- هي إحدى أدلّة هذا الموضوع.

٤- كان المتعارف بين العرب أن يدفعوا للمرأة مهرها سلفاً، و لهذا المعنى أشار سبحانه في قوله في الأمر الرابع: «وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا».

بالرغم من أنّ أزواج المؤمنات كفّار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهرور على زوجاتهم، و ذلك لأنّ الطلاق و الانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب إيمانها، لذا توجب العدالة الإسلامية دفع خسارة الزوج.

و يتساءل هنا: هل المقصود من الإنفاق هو المهر فقط، أو أنّه يشمل كافّة المصاريف التي بذلها الرجل لهذا الشأن؟

رجّح أغلب المفسّرين المعنى الأوّل، و هذا هو القدر المسلّم به، بالرغم من أنّ البعض - كأبي الفتوح الرازي - يرى وجوب تحمّل كافّة النفقات الأخرى أيضاً. و طبعي أنّ دفع المهر يكون لمن عقد معاهدة صلح من الكفار مع المسلمين، كما في صلح الحديبية. و أمّا من الذي يدفع المهر؟ فالظاهر أنّ هذا العمل يجب أن تتبنّاه الدولة الإسلامية (بيت المال) لأنّ جميع الأمور التي لم يكن لها مسؤول خاصّ في المجتمع الإسلامي يجب أن تتصدّى الدولة لإدارتها، و خطاب الجمع في الآية مورد البحث دليل على هذا المعنى. (كما يلاحظ في آيات حدّ السارق و الزاني).

٥- الحكم الآخر الذي يلي الحكم أعلاه، فهو قوله تعالى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ».

و هنا تؤكد الآية الكريمة على ضرورة إعطاء النساء المهاجرات مهورهنّ في حالة الرغبة بالزواج منهنّ، شاذبة التصوّر الذي يدور في خلد البعض بأنّ النساء المهاجرات لا يستحقن مهورا جديدة بسبب استلامهنّ المهور من أزواجهنّ السابقين، و قد تحمّل بيت المال مبالغها و دفعها لأزواجهنّ السابقين. إنّ زواجكم من هؤلاء النسوة لا يمكن أن يكون مجانياً، و لا بدّ أن يؤخذ بنظر الاعتبار مهر يتناسب مع حرمة المرأة المؤمنة. و من الضروري ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الكافر لا يحتاج إلى طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدة. و قد ذكر الفقيه «صاحب الجواهر» في شرحه لكلام «المحقّق الحليّ» «و أمّا في الزوج و الزوجة غير الكتابين، فالحكم فيهما أنّ إسلام أحد الزوجين موجب لانفساخ العقد في الحال ان كان قبل الدخول و ان كان بعده وقف على انقضاء العدة بلا خلاف في شيء من ذلك و لا إشكال نصّاً و فتوى، بل لعلّ الاتفاق نقلا و تحصيلا عليه»^١.

٦- أمّا إذا كان الأمر على العكس و كان الزوج قد آمن بالإسلام و بقيت المرأة كافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجية، فتنتقطع صلة زواجهما، كما في قوله تعالى في تكملة الآية: «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ».

«عصم»: جمع عصمة، و هي في الأصل بمعنى المنع، و هنا- بمعنى النكاح و الزوجية- لوجود القرائن- و صرّح البعض بأنّه النكاح الدائم- و التعبير بالعصمة أيضا مناسب لهذا المعنى، لأنّه يمنع المرأة من الزواج من أيّ شخص آخر إلى الأبد.

«الكوافر» جمع كافرة، بمعنى النساء الكافرات. و قد بحث الفقهاء في أنّ هذا الحكم هل هو مختصّ بالنساء المشركات فقط، أم أنّه يشمل أهل الكتاب أيضا كالنسوة المسيحيات و اليهوديات؟ و تختلف الروايات في هذا المجال، حيث يجدر متابعتها في كتب الفقه. إلّا أنّ ظاهر الآية مطلق و يشمل جميع النساء الكافرات، كما أنّ سبب النزول لم يحدّد ذلك. أمّا مسألة «العدة» فهي باقية بطريق أولى، لأنّها إذا أنجبت طفلا فسيكون مسلما لأنّ أباه مسلم.

٧- أمّا آخر حكم ذكر في الآية الكريمة، فهو مهور النساء اللواتي ارتددن عن الإسلام و التحقن بالكفر فانّ لكم الحقّ في المطالبة بمهورهنّ مثلما للكفر الحقّ في المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتي دخلن دائرة الإسلام و التحقن بالمسلمين، حيث يقول تعالى: وَ سَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا وَ هَذَا مَا تَوْجِبُهُ الْعَدَالَةُ وَ الاحترام المتقابل للحقوق. و في نهاية الآية- و تأكيدا لما سبق- يقول سبحانه: «ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

١. جواهر الكلام، جلد ٣٠، صفحہ ٥٤.

إنّ هذه الأحكام المستلهمة من العلم الإلهي، الممتزجة بحكمته تعالى، و التي لاحظت في تشريعاتها كافة الحقوق، تنسجم مع مبادئ العدل و المرتكزات و الأصول الإسلامية، و لا بدّ من الالتفات إلى حقيقة أنّ كون جميع هذه الأحكام إلهية يعدّ أكبر ضمانة إجرائية لها في قوّة التنفيذ.

و استعرضت ثاني و آخر آية من هذه الآيات متابعة لما تقدّم، بعض الأمور في هذا الصدد يقول تعالى أنّه في كلّ مرّة ترتدّ امرأة متزوجة عن الإسلام و تلتحق بالكفار، ثمّ حدثت معركة بينكم و بين الكفار و حالفكم النصر عليهم و غنمتم منهم مغنم فأعطوا الذين ذهب زواجهم إلى الكفار: «وإنّ فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا»

و تمثيلاً مع النصّ القرآني فإنّ بإمكان المسلمين الذين فقدوا زواجهم اللواتي التحقن بمعسكر الكفر أن يأخذوا مهورهنّ من الكفار، كما كان يحقّ للكفار استلام مهور زواجهم اللواتي اعتنقن الإسلام و هاجرن إلى المدينة. و تحدّثنا بعض الروايات أنّه في الوقت الذي طبّق المسلمون هذا الحكم العادل، فإنّ مشركي مكّة امتنعوا عن الالتزام به و تنفيذه، لذا فقد امر المسلمون بصيانة حقّ هؤلاء الأفراد و ذلك بإعطائهم ما يعادل المهور التي دفعوها لزواجهم اللواتي التحقن بالمشرّكين من الغنائم التي حصلوا عليها قبل تقسيمها على الآخرين. و يحتمل أن يكون هذا الحكم خاصّاً بالجماعات التي لم يكن لها عهد مع المسلمين، حيث من الطبيعي أنّ مثل هؤلاء لم يكونوا مستعدين لدفع مهور أمثال هؤلاء النسوة للمسلمين، كما يمكن الجمع بين الرأيين أيضاً.

«عاقبتهم» من مادّة معاقبة، و هي في الأصل من عقب (على وزن كدر) بمعنى: (كعب القدم) و لهذا السبب فإنّ كلمة «عقبي» جاءت بمعنى الجزاء و العقوبة، أي بمعنى عقاب لعمل فيه مخالفة. لذا فإنّ المعاقبة تستعمل بمعنى القصاص، كما يستعمل هذا المصطلح أيضاً (معاقبة) بمعنى (التناوب) في أمر ما، لكون الأشخاص الذين ينجزون عملاً ما بشكل متناوب، يعقب كلّ منهم الآخر. و لذا فإنّ كلمة (عاقبتهم) في الآية أعلاه جاءت بمعنى انتصار المسلمين على الكفار و عقابهم و أخذ الغنائم منهم، كما جاءت أيضاً بمعنى «التناوب» أي يوم ينتصر فيه الكفار على المسلمين و يوم بالعكس.

و يحتمل أيضاً المقصود من هذه العبارة هو: الوصول إلى نهاية و عاقبة عمل ما، و المراد من نهاية العمل هنا هو أخذ الغنائم الحربية. و أي من هذه المعاني كان، فإنّ النتيجة واحدة، إلّا أنّ طرق الوصول إلى هذه النتيجة متفاوتة. و تدعو الآية الكريمة في نهايتها جميع المسلمين إلى الالتزام بالتقوى حيث يقول تعالى: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

و الأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقّة و العدل في تعيين مقدار مهر الزوجة، باعتبار أنّ هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج في الغالب، و لا يوجد سبيل لإثبات هذا الحقّ إلّا أقوال الزوجين، و لاحتمال أن تسبّب الوسواس الشيطانية في الادّعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقي للمهر، لذا يوصي

بالتقوى. و جاء في التواريخ و الروايات أن هذا الحكم الإسلامي قد شمل ست نسوة- فقط- انفصلن عن أزواجهن المسلمين و التحقن بالكفار، و قد أعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهورهن من الغنائم الحربية.

بحوث

العدل حتى مع الأعداء

من خلال استعراضنا الآيات الكريمة أعلاه نلاحظ عمق الدقة و روعة الظرافة و اللطف في طبيعة الأحكام التي وردت فيها، موضحة إلى أي حد يهتم الإسلام بأصل العدالة و القسط في تشريع أحكامه حتى في أخرج الظروف و أصعبها، لأنه يسعى لتعميم الخير و إبعاد الأذى و الضرر حتى عن الكفار. في الوقت الذي نلاحظ أن العرف العام في حياتنا العملية يتعامل في الظروف و الأوقات العصيبة بخصوصية معينة و استثناء خاص و يتخلى عن الكثير من قيم الحق و العدل و يدعي أن لا مكان لإحقاق الحق فيها .. في حين تؤكد التشريعات الإلهية على تحمّل كل صعوبة حتى في أدق الظروف و أشدها ضيقاً منعاً لهدر أي حق، لا للقريبين فقط. بل حتى للأعداء، إذ يجب أن يحافظ على حقوقهم و ترعى حرمتهم.

إن مثل هذه الأحكام الإسلامية هي في الحقيقة نوع من الإعجاز، و دليل على حقانية دعوة الرسول الأعظم حيث السعي بمنتهى الجهد لإقامة العدل حتى في أسوأ حالات الانتهاك للحرمة الإسلامية في مجال النفس و المال كما كان عليه فعل المجتمع الجاهلي.

سورة الممتحنة : آية ١٢

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَاعِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

التفسير

شروط بيعه النساء

استمرارا للبحث الذي تقدّم في الآيات السابقة و الذي استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، تتحدّث هذه الآية عن تفاصيل و أحكام بيعة النساء المؤمنات مع الرّسول الأعظم ﷺ. لقد ذكر المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت يوم فتح مكّة عند ما كان رسول الله ﷺ على جبل (الصفا) يأخذ البيعة من الرجال، و كانت نساء مكّة قد أتبن إلى رسول الله من أجل البيعة فنزلت الآية أعلاه، و بيّنت كيفية البيعة معهنّ، و يختصّ خطاب الآية برسول الله ﷺ حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ...» إلى قوله: «...إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

و بعد هذه الآية أخذ رسول الله البيعة من النساء المؤمنات. و كتب البعض حول كيفية البيعة أن رسول الله ﷺ مر بإناء فيه ماء، و وضع يده المباركة فيه، و وضع النسوة أيديهن في الجهة الأخرى من الإناء. و قيل إن رسول الله بايع النساء من فوق الملابس. و مما يجدر ملاحظته أن الآية الكريمة ذكرت ستة شروط في بيعة النساء، يجب مراعاتها و قبولها جميعاً عند البيعة و هي:

- ١- ترك كل شرك وعبادة للأوثان، وهذا شرط أساسي في الإسلام و الإيمان.
- ٢- اجتناب السرقة، و يحتمل أن يكون المقصود بذلك هو سرقة أموال الزوج، لأن الوضع المالي السيء آنذاك، و قسوة الرجل على المرأة، و انخفاض مستوى الوعي كان سببا في سرقة النساء لأموال أزواجهن، و احتمال إعطاء هذه الأموال للمتعلقين بهن. و ما قصة (هند) في بيعتها لرسول الله ﷺ إلا شاهد على هذا المعنى، و لكن على كل حال فإن مفهوم الآية واسع.
- ٣- ترك التلوث بالزنا، إذ المعروف تاريخيا أن الانحراف عن جادة العفة كان كثيرا في عصر الجاهلية.
- ٤- عدم قتل الأولاد، و كان القتل يقع بطريقتين، إذ يكون بإسقاط الجنين تارة، و بصورة الوأد تارة أخرى (و هي عملية دفن البنات و الأولاد أحياء).

٥- اجتناب البهتان والافتراء، وقد فسّر البعض ذلك بأن نساء الجاهلية كنّ يأخذن الأطفال المشكوكين من المعابر والطرق ويدّعين أنّ هذا الطفل من أزواجهنّ (و هذا الأمر محتمل في حالة الغياب الطويل للزوج). وقد اعتبر البعض ذلك إشارة إلى عمل قبيح هو من بقايا عصر الجاهلية، حيث كانت المرأة تتزوّج من رجال عدّة، وعند ما يولد لها طفل تنسبه إلى أيّ كان منهم، إذا ضمنت رغبته بالطفل. و مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ مسألة الزنا قد ذكرت سابقاً، و لم يكن استمرار مثل هذا الأمر في الإسلام ممكناً، لذا فإنّ هذا التفسير مستبعد، و التفسير الأوّل أنسب بالرغم من سعة مفهوم الآية الشريفة الذي يشمل كلّ افتراء و بهتان.

كما أنّ التعبير بـ «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلِهِمْ» يمكن أن يكون إشارة إلى أطفال أبناء السبيل، حيث تكون وضعية الطفل الرضيع عند رضاعته في حضن أمّه بين يديها و رجليها.

٦- الطاعة لأوامر رسول الله ﷺ التي تبني الشخصية المسلمة و تهذبها و تربيها على الحقّ و الخير و الهدى، و هذا الحكم واسع أيضاً يشمل جميع أوامر الرّسول، بالرغم من أنّ البعض اعتبره إشارة إلى قسم من أعمال النساء في عصر الجاهلية كالنوح بصوت عال على الموتى، و تمزيق الجيوب و خمش الخدود و ما شابه، إلّا أنّ مفهوم الطاعة لا ينحصر بذلك.

و يمكن أن يطرح هنا هذا السؤال و هو: لماذا كانت البيعة مع النساء مشروطة بهذه الشروط، في حين أنّ بيعة الرجال لم تكن مشروطة إلّا بالإيمان و الجهاد؟ و للإجابة على ذلك نقول: إنّ الأمور الأساسية المتعلقة بالرجال في ذلك المحيط هو الإيمان و الجهاد، و لأنّ الجهاد لم يكن مشروعاً بالنسبة للنساء لذا ذكرت شروط أخرى أهمّها ما أكّدت عليه الآية الشريفة و التي تؤكد على صيانة المرأة من الانحراف في ذلك المجتمع.

بحوث

١- ارتباط بيعة النساء ببناء شخصيتهنّ الإسلامية

لقد ذكرنا في تفسير سورة الفتح- في نهاية الآية (١٨)- بحثاً مفصلاً حول البيعة و شروطها و خصوصياتها في الإسلام، لذا لا ضرورة لتكرار ذلك.^١ و ممّا يجدر التذكير به هنا أنّ مسألة بيعة النساء للرسول ﷺ كانت بشروط بناءة و مربيّة كما نصّت عليها الآية أعلاه.

إنّ هذه النقطة على خلاف ما يقوله الجهلة و المغرضون في أنّ الإسلام حرم المرأة من الاحترام و القيمة و المكانة التي تستحقّها، فإنّ هذه الآية أكّدت على الاهتمام بالمرأة في أهمّ المسائل و من

١. يراجع في هذا الصدد التفسير الأمثل الآية (١٨) سورة الفتح.

ضمنها موضوع البيعة سواء كانت في الحديبية في العام السادس للهجرة أو في فتح مكة، و بذلك دخلن العهد الإلهي مع الرجال و تقبلن شروطا إضافية تعبّر عن الهوية الإنسانية للمرأة الملتزمة بتنفيذها من شرور الجاهلية، سواء القديمة منها أو الجديدة، حيث تتعامل معها كمتاع بخس رخيص و وسيلة لإشباع شهوة الرجال ليس إلّا.

٢- قصة بيعة (هند) زوجة أبي سفيان

عند ما منّ الله على المسلمين بفتح مكة، و جاءت النساء لبيعة الرسول الأعظم ﷺ و كانت «هند» زوجة أبي سفيان من ضمن النساء اللواتي جئن لبيعة الرسول أيضا. هذه المرأة التي ينقل عنها التاريخ قصصا مثيرة في ممارساتها الإجرامية و ما قصة فعلها بحمزة سيد الشهداء في غزوة أحد، ذلك العمل الإجرامي القبيح، إلّا مفردة واحدة من الصور السوداء لهذه المرأة المشينة. و بالرغم من أنّ الظروف قد اضطرتها إلى الانحناء أمام عظمة الإسلام فأعلنت إسلامها ظاهريا، إلّا أنّ قصة بيعتها تعكس أنّها في الواقع كانت وقيّة لما ارتبطت به من عقائد جاهلية سابقة، لذا فليس عجبا ما ارتكبه آل أمية و أبناؤهم بحق آل الرسول، بصورة لم يكن لها مثيل. و على كلّ حال، فقد كتب المفسرون في قصة بيعة هند:

روي أنّ النبي بايعهنّ و كان على الصفا، و هند بنت عتبة متنبّية متنكرة خوفا من أن يعرفها رسول الله، فقال: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا» فقالت هند: «أنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال.» و ذلك أنّه بايع الرجال يومئذ على الإسلام و الجهاد فقط، فقال رسول الله: «و لا تسرقن» فقالت هند: «إنّ أبا سفيان ممسك و أنّي أصبت من ماله هنات فلا أدري أ يحلّ لي أم لا؟» فقال أبوسفيان: «ما أصبت من مالي فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال» فضحك رسول الله و عرفها فقال لها: «و أنّك هند بنت عتبة» فقالت: «نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك»

فقال: «و لا تزنين» فقالت هند: «أو تزني الحرّة» فتبسّم عمر بن الخطاب لما جرى بينه و بينها في الجاهلية، فقال ﷺ: «و لا تقتلن أولادكن»، فقالت هند: «ربّيناهم صغارا و قتلوهم كبارا و أنتم و هم أعلم.» و كان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر. و قال النبي ﷺ: «و لا تأتين بهتان» قالت هند: «و الله إنّ البهتان قبيح و ما تأمرنا إلّا بالرشد و مكارم الأخلاق» و لمّا قال: «و لا يعصينك في معروف» قالت هند: «ما جلسنا مجلسنا هذا و في أنفسنا أن نعصيك في شيء»^١.

١. مجمع البيان، جلد ٩، صفحه ٢٧٦، و جاء القرطبي في تفسيره بهذه القصة باختلاف يسير، و كذلك السيوطي في الدر المنثور، و أبو الفتوح في تفسير روح الجنان (في نهاية الآيات مورد البحث).

٣- الطاعة بالمعروف

إنَّ من جملة النقاط الرائعة المستفادة من الآية أعلاه هو تقييد طاعة الرّسول بالمعروف، مع أنَّ الرّسول ﷺ معصوم و لا يأمر بالمنكر أبداً، وهذا التعبير الرائع يدلُّ على أمر في غاية السمو، و هو أنَّ الأوامر التي تصدر من القادة الإسلاميين - مع كونهم يمثلون القدوة و النموذج - لن تكون قابلة للتنفيذ و محترمة إلّا إذا كانت منسجمة مع التعاليم القرآنية و اصول الشريعة و عندئذ تكون مصداقا (لا يعصينك في معروف).

و كم هي الفاصلة بعيدة بين الأشخاص الذين يعتبرون أوامر القادة واجبة الطاعة، مهما كانت و من أي شخص صدرت، ممّا لا ينسجم مع العقل و لا مع حكم الشرع و القرآن، و بين التأكيد على إطاعة المعصوم و عدم المعصية في معروف؟! و قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته المشهورة التي أرسلها لأهل مصر حول و الولاية مالک الأشر، و مع كلّ تلك الصفات المتميّزة فيه: «فاسمعوا له و أطيعوا أمره فيما طابق الحقّ فإنّه سيف من سيوف الله»^١.

١. نهج البلاغة، رسالة رقم (٣٨) و هي رسالة قصيرة كتبها الإمام عليه السلام لأهل مصر هي غير ما كتبه الإمام عليه السلام من العهد المعروف لمالك الأشر.

سورة الممتحنة : آية ١٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

التفسير

بدأت هذه السورة بآية تؤكد على قطع كل علاقة بأعداء الله، و تختتم هذه السورة بآية تؤكد هي الأخرى على نفس المفهوم و الموقف من أعداء الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و بتعبير آخر فإنّ ختام السورة رجوع إلى مطلعها. و يحذّر القرآن الكريم من أن يتخذ أمثال هؤلاء أولياء و أن تفشى لهم الأسرار فيحيطون علما بخصوصيات الوضع الإسلامي. و يرى البعض أنّ الآية صريحة في أنّ المراد بالمغضوب عليهم فيها هم (اليهود) إذن أنّهم ذكروا في آيات قرآنية أخرى بهذا العنوان، قال تعالى: «فَبَايُتُ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ»^١.

و هذا التفسير يتناسب أيضا مع سبب النزول الذي ذكر لهذه الآية، حيث تحدثنا بعض الروايات أنّ قسما من فقهاء المسلمين كانوا يذهبون بأخبار المسلمين إلى اليهود مقابل إعطائهم شيئا من فواكه أشجارهم، فنزلت الآية أعلاه و نهتهم عن ذلك.^٢ و مع ذلك فإنّ للآية مفهومها واسعا حيث يشمل جميع الكفار و المشركين، و التعبير بـ «الغضب» في القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضا كما في الآية (٦) من سورة الفتح، بالإضافة إلى أنّ سبب النزول لا يحدّد مفهوم الآية. و بناء على هذا فإنّ ما جاء في الآية الشريفة يتناسب مع أمر واسع جاء في أول آية من هذه السورة تحت عنوان (موالاة أعداء الله).

ثمّ تتناول الآية أمرا يعتبر دليلا على هذا النهي حيث يقول تعالى: «قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ»^٣. ذلك أنّ موتى الكفار سيرون نتيجة أعمالهم في البرزخ حيث لا رجعة لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيئة، لذلك فإنّهم يئسوا تماما من النجاة، و هؤلاء المجرمون في

١. البقرة، الآية ٩٠.

٢. مجمع البيان، جلد ٩، صفحہ ٢٧٦.

٣. ذهب بعض المفسرين إلى احتمالات أخرى في تفسير هذه الآية من جملتها: أنّهم ينسوا من ثواب الآخرة كما يئس المشركون من إحياء أصحاب القبور، إلّا أنّ التفسير الذي ذكرناه أعلاه أنسب (و ممّا يجدر الانتباه إليه أنّه طبقا للتفسير الأول فإنّ (من أصحاب القبور) وصف للكفار و طبقا للتفسير الأخير فإنّها متعلّقة بـ (يئس).

هذه الدنيا قد غرقوا في آثامهم و ذنوبهم إلى حدّ فقدوا معه كلّ أمل في نجاتهم، كما هو الحال بالنسبة للموتى من الكفار.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد من الطبيعي أن يكونوا أشخاصا غير أمناء و لا يعتد بكلامهم و عهدهم، و لا اعتبار لودّهم و صداقتهم، لأنّهم يائسون تماما من رحمة الله، و لهذا السبب فإنّهم يرتكبون أقبح الجرائم و أرذل الأعمال، و جماعة هذه صفاتها كيف تثقون بها و تعتمدون عليها و تتخذونها أولياء؟! اللهم، لا تحرنا أبدا من لطفك و رحمتك الواسعة.

ربّنا، وفقنا لنكون أولياء لأوليائك و أعداء لأعدائك، و ثبتّ أقدامنا في هذا السبيل. إلهنا، وفقنا للتأسي بأنبيائك و أوليائك.

الفصل الثاني:

وصايا رسول الله القِيَمَة لابن مسعود

مسعود معلّم القرآن الكريم

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي أحد الصحابة الأجلاء لرسول الله، اشتهر بين أهل العلم والقرآن بأنه شخصيّة قرآنية ومن طليعة معلّمي هذا الكتاب السماوي قبل أن يعرف بأي شيء آخر. وهو من المسلمين الرواد الذين تعرّضوا لسنين التضيق والمشقة التي فرضت على أصحاب الرسول في مكة فهاجروا إلى الحبشة استجابة لأمره . ونتيجة للفقر وشصف العيش الناشئين من الهجرة والغربة اضطرّ هذا الصحابي الكبير إلى العمل بالبيع والشراء في سوق الحبشة^١. وابن مسعود من ملازمي رسول الله في أسفاره، وكان يحتفظ لهبمنذله ومسواكه ونعليه^٢. وعدّ في صفوف الرسول في معركة بدر وفي جميع حروبه إبان صدر الإسلام^٣، كما اشترك في بيعة الرضوان^٤.

وأوّل من تلا القرآن بصوت جهوري في مكة هو ابن مسعود^٥؛ ولذلك أذاقه مشركوها أذى واضطهاداً كثيرين . ومعرفته بالقرآن وحبّه له جعله الخليفة الثاني يرسله إلى الكوفة ويأمره بتعليم أهلها للقرآن الكريم ولأموار دينهم إلى جانب مسؤوليّته في الحفاظ على بيت مال المسلمين^٦، فأسّس في المدينة المذكورة مركزاً علمياً قرآنياً.

ونقلت مصادر التفسير الشيعية والسنية روايات وافرة في تفسير القرآن عن ابن مسعود، كما أنه من الصحابة الذين لهم مصحف معروف، فقد جاء في بعض المصادر التاريخية والروائية أن الخليفة الثالث طالب بمصحف ابن مسعود عند توحده للمصاحف، فأحضره من الكوفة إلى المدينة، وعندما دخلها ابن مسعود كان الخليفة الثالث يخطب على المنبر فلما رآه وجّه إليه الخليفة كلمات مهينة، فاعتزّضت عليه عائشة وذمّته، فأمر بإخراجه بعنف من المسجد، فاعتدى على هذا الصحابي الجليل أحد حاشية الخليفة واحتمله وضرب به الأرض فكسر أحد أضلاعه، فأوصى ابن مسعود بأن لا يصلي عليه من أهان معلّم القرآن وصحابي رسول الله^٧.

وكذلك سجّلت روايات الشيعة وأهل السنة كثيراً من أقوال ابن مسعود في حبّه لأهل البيت ودفاعه عنهم، منها: نقله لحديث الغدير، وحديث الخلفاء الاثني عشر، وشأن نزول آية التبليغ في إمامة علي.

١ - آشنائي بتاريخ اسلام، سيد علي مير شريفى، ج ١، ص ٩٩.

٢ - أنساب الأشراف، البلاذرى، ج ١١، ص ٢١٧.

٣ - المعارف، ابن قتيبة، ص ٢٤٩.

٤ - الاستيعاب، ابن عبد البر، ج ٣، ص ٩٨٨.

٥ - أنساب الأشراف، البلاذرى، ج ١، ص ١٩٢.

٦ - مروج الذهب، المسعودى، ج ٢، ص ٣٣٤.

٧ - أنساب الأشراف، البلاذرى، ج ٥، ص ٥٢٤-٥٢٥.

وصلّى ابن مسعود في الربرة على جسد أبي ذر الغفاري الصحابي الجليل لرسول الله والرفيق المخلص للإمام علي^١. وبقي إلى آخر أيام حياته من الأوفياء لأهل البيت^٢. توفي بالمدينة سنة ٣٢ للهجرة، ودفن فيها بمقبرة البقيع^٣.

توصيات الرسول لابن مسعود

من الكنوز الخالدة عن رسول الله في الصبر والتقوى، مجموعة في الجواب عن سؤال ابن مسعود وعدد من المرافقين له، وشملت تعاليم تخصّ العقيدة والأخلاق والعرفان والمعيشة وغيرها. هذا السؤال اتّخذه مؤلف مكارم الأخلاق ذريعةً ليرسم لابن مسعود ومرافقيه أجمل أوصاف المتّقين والصّابرين وأكمل مكارم الأخلاق بعنوان أسلوب الحياة الإسلامية، ونبه في المقابل على بعض الخصائص الشخصية والأخلاقية لسيّئ الأخلاق.

من خصائص هذه المجموعة من المواعظ والتوصيات الخالدة والمقومة للذات الإنسانية: استشهاد الرسول بعدد من آيات القرآن الكريم، والإخبار عن مستقبل الإسلام وتشكّل التيارات الضالة، والوصية بالزهد والابتعاد عن الدنيا، وذكر الله سبحانه.

نقلت مصادر حديثية متعدّدة وصايا رسول الله لابن مسعود، فمن جملة المصادر الشيعية التي روتها: الكتاب القيم «مكارم الأخلاق»^٤ للحسن بن فضل الطبرسي، والموسوعة الروائية النفيسة «بحار الأنوار»^٥ للعلامة المجلسي، و«الوافي»^٦ للفيض الكاشاني.

١. أسد الغابة، ابن الأثير، ج ٥، ص ١٠١.

٢. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة، ج ١، ص ١٩٣.

٣. أنساب الأشراف، البلاذري، ج ٥، ص ٥٢٦.

٤. مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص ٤٤٦ - ٤٥٨.

٥. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٤، ص ٩٢ - ١١٠.

٦. الوافي، محسن الفيض الكاشاني، ج ٢٦، ص ٢٠٢ - ٢٢٢. نقلا عن كتاب «من لا يحضره الفقيه» للشيخ الصدوق.

وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القيمة لابن مسعود^١

فقد رواها عن عبد الله بن مسعود قال: دخلت أنا و خمسة رهط من أصحابنا يوما على رسول الله ﷺ قد أصابتنا مجاعة شديدة و لم يكن ذقنا^٢ منذ أربعة أشهر إلا الماء و اللبن و ورق الشجر، قلنا: يا رسول الله إلى متى نحن على هذه المجاعة الشديدة.

فقال رسول الله ﷺ لا تزالون فيها ما عشتُم فأحدثوا لله شكرا، فإني قرأت كتاب الله الذي أنزل علي و على من كان قبلي فما وجدت من يدخلون الجنة إلا الصابرون.

يا ابن مسعود قول الله تعالى إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^٣ - أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا^٤ و إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ^٥، يا ابن مسعود قول الله تعالى وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا^٦، أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا، يقول الله تعالى أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَ الضَّرَاءِ^٧ - وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ^٨

قلنا: يا رسول الله فمن الصابرون ؟

١ الوافي، ج ٣، ص ٥٧

٢ في مكارم الأخلاق: رزقنا.

٣ الزمر / ١٠.

٤ الفرقان / ٧٥.

٥ المؤمنون / ١١١.

٦ الإنسان / ١٢.

٧ البقرة / ٢١٤.

٨ البقرة / ١٥٥.

قال: الذين يصبرون على طاعة الله و عن معصيته^١ الذين كسبوا طيبا و أنفقوا قصدا و قدموا فضلا فأفلحوا و أنجحوا^٢.

يا ابن مسعود عليهم الخشوع و الوقار و السكينة و التفكير و اللين و العدل و التعليم و الاعتبار و التدبير و التقوى و الإحسان و التخرج و الحب في الله و البغض في الله و أداء الأمانة و العدل في الحكم و إقامة الشهادة و معاونة أهل الحق و التقية على المسيء و العفو عن (لمن - خ ل) ظلم،

يا ابن مسعود إذا ابتلوا صبروا، و إذا أعطوا شكروا، و إذا حكموا عدلوا، و إذا قالوا صدقوا، و إذا عاهدوا وفوا، و إذا أساءوا استغفروا، و إذا أحسنوا استبشروا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما^٣ - و إذا مروا باللغو مروا كراما^٤ - و الذين يبيتون لربهم سجدا و قياما^٥ و يقولون للناس حسنا.

يا ابن مسعود و الذي بعثني بالحق إن هؤلاء هم الصابرون^٦.

يا ابن مسعود أ فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه^٧ فإن النور إذا وقع في القلب انشرح و انفسح،

فقل: يا رسول الله فهل لذلك من علامة فقال: نعم التجافي عن دار الغرور، و الإنابة إلى دار الخلود، و الاستعداد للموت قبل نزول الفوت، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها و تركها لأهلها.

يا ابن مسعود قول الله تعالى لِيُبْلِغْكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^٨ يعني أيكم ازهد في الدنيا إنها دار الغرور و دار من لا دار له و لها يجمع من لا عقل له، إن أحقق الناس من طلب الدنيا، قال الله تعالى اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما^٩ و في الآخرة عذاب شديد^{١٠} و قال الله تعالى و آتيناها الحكم صبيّا^{١١} يعني الزهد في الدنيا، و قال تعالى لموسى:

١. في مكارم الأخلاق: و اجتنبوا معصيته.

٢. في مكارم الأخلاق: و أصلحوا.

٣. الفرقان / ٦٣.

٤. الفرقان / ٧٢.

٥. الفرقان / ٦٤.

٦. في مكارم الأخلاق: الفائزون.

٧. الزمر / ٢٢.

٨. هود / ٧ و الملك / ٢.

٩. الحديد / ٢٠.

١٠. مريم / ١٢.

يا موسى إنه لن يتزين المتزينون بزينة أزين في عيني مثل الزهد، يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغناء مقبلا، فقل ذنب عجلت عقوبته.

يا ابن مسعود [انظر] قول الله تعالى وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ. وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ^١ و قولهم مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا^٢.

يا ابن مسعود من اشتاق إلى الجنة سارع في الخيرات، و من خاف النار ترك الشهوات، و من ترقب الموت انتهى^٣ عن اللذات، و من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.

يا ابن مسعود قول الله تعالى زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ - الآية^٤

يا ابن مسعود إن الله اصطفى موسى بالكلام و المناجاة حين كان يرى خضرة البقل في بطنه من هزاله، و ما سأل موسى حين تولى إلى الظل إلا طعاما يأكله من جوع.

يا ابن مسعود إن شئت نباتك بأمر نوح نبي الله إنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاما [يدعو إلى الله] فكان إذا أصبح قال: لا أمسى و إذا أمسى قال: لا أصبح فكان لباسه الشعر و طعامه الشعير، و إن شئت نباتك بأمر داود عليه السلام خليفة الله في الأرض كان طعامه الشعير و لباسه الشعر، و إن شئت نباتك بأمر سليمان بما كان فيه من الملك، و كان يأكل الشعير و يطعم الناس الحواري^٥ و كان لباسه الشعر و كان إذا جنه الليل شديدة على عنقه فلا يزال قائما يصلي حتى يصبح، و إن شئت نباتك بأمر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام كان لباسه الصوف و طعامه الشعير، و إن شئت نباتك بأمر يحيى عليه السلام كان لباسه الليف و كان يأكل ورق الشجر، و إن شئت نباتك بأمر عيسى بن مريم عليه السلام فهو العجب كان يقول: إدامي الجوع و شعاري الخوف و لباسي الصوف و دابتي رجلاي و سراجي بالليل القمر و صلاي في الشتاء مشارق الشمس و فاكهتي و ريحانتي بقول الأرض مما يأكل الوحوش و الأنعام، أبيت و ليس لي شي ء و أصبح و ليس لي شي ء و ليس على وجه الأرض أحد أغنى مني.

١. الزخرف / ٣٣ - ٣٥.

٢. الإسراء / ١٨ - ١٩.

٣. في مكارم الأخلاق: أعرس.

٤. آل عمران / ١٤.

٥. الحواري بضم المهملة و تشديد الواو و فتح الراء الدقيق الأبيض و هو لباب الدقيق و كل ما حوارى بيض من الطعام «منه».

يا ابن مسعود كل هذا منهم يبغيضون ما أبغض الله و يصغرون ما صغر الله و يزهدون ما أزهد الله، و قد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، فقال لنوح عليه السلام إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا^١ و قال لإبراهيم عليه السلام وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا^٢ و قال لداود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ^٣ و قال لموسى عليه السلام وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا^٤ و قال أيضا لموسى عليه السلام وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا^٥ و قال ليحيى عليه السلام وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا^٦

و قال لعيسى عليه السلام يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا إِلَى قَوْلِهِ إِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي^٧ و قال إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ^٨ [يا ابن مسعود] كل ذلك لما خوفهم الله في كتابه من قولِهِ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ^٩ قال الله تعالى وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ^{١٠}.

يا ابن مسعود النار لمن ركب محرما و الجنة لمن ترك الحلال فعليك بالزهد فإن ذلك مما يباهي الله به الملائكة و يقبل عليك^{١١} بوجهه و يصلي عليك الجبار،

يا ابن مسعود سيأتي من بعدي أقوام يأكلون أطيب^{١٢} الطعام و ألوانها و يركبون الدواب و يتزينون بزينة المرأة لزوجها و يتبرجون تبرج النساء و زيهن^{١٣} مثل زي الملوك الجبابرة، هم منافقو هذه الأمة في آخر الزمان، شاربون بالقهوات لاعبون بالكعب^{١٤} راكبون الشهوات، تاركون الجماعات، راقدون عن

١. الإسراء / ٣.

٢. النساء / ١٢٥.

٣. ص / ٢٦.

٤. النساء / ١٦٤.

٥. مريم / ٥٢.

٦. مريم / ١٢.

٧. المائدة / ١١٠.

٨. الأنبياء / ٩٠.

٩. الحجر / ٤٣ - ٤٤.

١٠. الزمر / ٦٩.

١١. في مكارم الأخلاق: و به يقبل الله عليك.

١٢. في مكارم الأخلاق: طيب.

١٣. في مكارم الأخلاق: و زيهن.

١٤. في الأصل: الكعبات.

العتما، مفرطون في الغدوات، يقول الله تعالى فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا،

يا ابن مسعود مثل مثلهم مثل الدفلى زهرتها حسنة و طعمها مر، كلامهم الحكمة و أعمالهم داء لا يقبل الدواء أ فلا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟

يا ابن مسعود ما يغني من يتنعم في الدنيا إذا أخلد في النار يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ^١ يبنون الدور و يشيدون القصور و يزخرفون المساجد ليست همتهم إلا الدنيا، عاكفون عليها، معتمدون فيها، ألهمتهم بطونهم، قال الله تعالى وَ تَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. و إذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا^٢ قال الله تعالى أ فرأيت من اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ - إلى قوله - أ فلا تَذَكَّرُونَ^٣ و ما هو إلا منافق جعل دينه هواه و إلهه بطنه كلما انتهى من الحلال و الحرام لم يمتنع منه قال الله تعالى وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ^٤،

يا ابن مسعود محاريبهم نساؤهم و شرفهم الدراهم و الدنانير و همتهم بطونهم أولئك شر الأشرار و الفتنة منهم و إليهم تعود.

يا ابن مسعود قول الله تعالى أ فرأيت إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ^٥،

يا ابن مسعود أجسادهم لا تشبع و قلوبهم لا تخشع، يا ابن مسعود الإسلام بدأ غريبا و سيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، فمن أدرك ذلك الزمان من أعقابكم فلا تسلموا في ناديهم، و لا تشيعوا جنائزهم، و لا تعودوا مرضاهم، فإنهم يستنون بسننكم، و يظهرون بدعوتكم، و يخالفون أفعالكم، فيموتون على غير ملتكم، أولئك ليسوا مني، و لا أنا منهم، فلا تخافن أحدا غير الله فإن الله تعالى يقول: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ^٦ و يقول: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ

١. مريم / ٥٩.

٢. محمد / ٢٤.

٣. الروم / ٧.

٤. الشعراء / ١٢٩ - ١٣١.

٥. الجاثية / ٢٣.

٦. الرعد / ٢٤.

٧. الشعراء / ٢٠٥ - ٢٠٧.

٨. النساء / ٧٨.

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا- إلى قوله- وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوَّاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ،

يا ابن مسعود عليهم لعنة الله مني و من جميع المرسلين و الملائكة المقربين و عليهم غضب الله و سوء الحساب في الدنيا و الآخرة، و قال الله تعالى لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - إلى قوله- وَ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ٢.

يا ابن مسعود أولئك يظهرن الحرص الفاحش، و الحسد الظاهر، و يقطعون الأرحام، و يزهدون في الخير، قال الله تعالى الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٣ و يقول الله تعالى مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ٤.

يا ابن مسعود يأتي على الناس زمان الصابر على دينه مثل القابض على الجمرة بكفه، يقول لذلك الزمان إن كان ذنباً و إلا أكلته الذئاب، يا ابن مسعود علماؤهم و فقهاؤهم خونة، ألا إنهم فجرة، أشرار خلق الله، و [كذلك] أتباعهم و من يأتيهم و يأخذ منهم و يحييهم و يجالسهم و يشاورهم أشرار خلق الله تعالى يدخلهم نار جهنم بكم عَمِيَ فَمَهُ لَا يَرْجِعُونَ ٦- وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ٧- كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ٨ و إذا أَلْقَوْا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَ هِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ٩- كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ [قيل لهم] ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٠- لَهُمْ فِيهَا زَفيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ١١، يدعون أنهم على ديني و سنتي و منهاجي و شرائعي أنهم مني براء و أنا منهم بري ء.

١. الحديد / ١٣- ١٥.

٢. المائدة / ٧٨- ٨١.

٣. الرعد / ٢٥.

٤. الجمعة / ٥.

٥. في مكارم الأخلاق: فإن كان في ذلك الزمان ذنباً، بدل: يقول لذلك الزمان ان كان ذنباً.

٦. البقرة / ١٨.

٧. الإسراء / ٩٧.

٨. النساء / ٥٤.

٩. الملك / ٧- ٨.

١٠. الحج / ٢٢.

١١. الأنبياء / ١٠٠.

يا ابن مسعود لا تجالسوهم في الملا ولا تبايعوهم في الأسواق، و لا تهدوهم الطريق، و لا تسقوهم الماء، قال الله تعالى مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ - الآية^١ يقول الله تعالى مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ^٢،
يا ابن مسعود عالموا^٣ أمتي بينهم العداوة و البغضاء و الجدل أولئك أذلاء هذه الأمة في دنياهم، و الذي بعثني بالحق ليخسفن الله بهم و يمسخهم قردة و خنازير.

قال: فبكى رسول الله ﷺ و بكينا لبكائه و قلنا: يا رسول الله ما يبكيك فقال: رحمة للأشقياء يقول الله تعالى وَ لَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا فَوْتَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ^٤ يعني الفقهاء و العلماء، يا ابن مسعود من تعلم العلم يريد به الدنيا و أثر عليه حب الدنيا و زينتها استوجبسخط الله عليه و كانفي الدرك الأسفل من النار مع اليهود و النصارى الذين نبذوا كتاب الله تعالى، قال الله تعالى فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^٥،

يا ابن مسعود من تعلم القرآن للدنيا و زينتها حرم الله عليه الجنة،
يا ابن مسعود من تعلم العلم و لم يعمل بما فيه حشره الله يوم القيامة أعمى، و من تعلم العلم رياء و سمعة يريد به الدنيا نزع الله بركته و ضيق عليه معيشتة و وكله الله إلى نفسه و من وكله الله إلى نفسه فقد هلك، قال الله تعالى فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^٦.
يا ابن مسعود فليكن جلساؤك الأبرار و إخوانك الأتقياء و الزهاد لأن الله تعالى قال في كتابها لأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ^٧،

يا ابن مسعود اعلم أنهم يرون المعروف منكرا و المنكر معروفا ففي ذلك يطبع الله على قلوبهم فلا يكون فيهم الشاهد بالحق و لا القوامون بالقسط، قال الله تعالى كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ^٨،

١. هود / ١٥.

٢. الشورى / ٢٠.

٣. فى مكارم الأخلاق: ما بلوى، بدل: عالموا.

٤. سبأ / ٥١.

٥. البقرة / ٨٩.

٦. الكهف / ١١٠. و فيه: فمن كان يرجو.

٧. الزخرف / ٦٧.

٨. النساء / ١٣٥.

يا ابن مسعود يتفاضلون بأحسابهم و أموالهم يقول الله تعالى و ما ل أحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . و لسوف يرضى^١،

يا ابن مسعود عليك بخشية الله و أداء الفرائض فإنه يقولهو أهل التقوى و أهل المغفرة^٢ و يقول رضي الله عنهم و رضوا عنه ذلك لمن خشي ربه^٣،

يا ابن مسعود دع عنك ما لا يعينك و عليك بما يعينك فإن الله تعالى يقول لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^٤ .

يا ابن مسعود إياك أن تدع طاعة و تقصد معصية شفقة على أهلك لأن الله تعالى يقول يا أيها الناس اتقوا ربكم و اخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا و لا يغرنكم بالله الغرور^٥

يا ابن مسعود احذر الدنيا و لذاتها و شهواتها و زينتها و أكل الحرام و الذهب و الفضة و المراكب و النساء [فإنه سبحانه يقول زين للناس حب الشهوات من النساء^٦ و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب. قل أئبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و أزواج مطهرة و رضوان من الله و الله بصير بالعباد^٧،

يا ابن مسعود لا تغترن بالله و لا تغترن بصلاحك و عملك و برك و عبادتك، يا ابن مسعود إذا تلوت كتاب الله فأثبت في آية^٨ فيها أمر أو نهى فرددها نظرا و اعتبارا فيها و لا تسه عن ذلك فإن نهيه يدل على ترك المعاصي و أمره يدل على عمل البر و الصلاح فإن الله يقول فكيف إذا جمعناهم ليووم لا ريب فيه و وقيت كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون^٩ .

١. الليل / ١٩ - ٢١.

٢. المدثر / ٥٦.

٣. البينة / ٨.

٤. عبس / ٣٧.

٥. لقمان / ٣٣.

٦. أثبتناه من مكارم الأخلاق.

٧. آل عمران / ١٤ - ١٥.

٨. في مكارم الأخلاق: فأثبت على آية.

٩. آل عمران / ٢٥.

يا ابن مسعود لا تحقرن ذنبا ولا تصغرن واجتنب الكبائر فإن العبد إذا نظر يوم القيامة إلى ذنوبه دمت عيناه قيحا واما يقول الله تعالى يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا^١، يا ابن مسعود إذا قيل لك اتق الله فلا تغضب فإنه يقولو إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم^٢، يا ابن مسعود قصر أملك فإذا أصبحت فقل: إني لا أمسى وإذا أمسيت فقل إني لا أصبح، و اعزم على مفارقة الدنيا و أحب لقاء الله و لا تكره لقاءه فإن الله يحب لقاء من يحب لقاءه و يكره لقاء من يكره لقاءه.

يا ابن مسعود لا تغرس الأشجار و لا تجري الأنهار و لا تزخرف البنيان و لا تتخذ الحيطان و البستان فإن الله تعالى يقول ألا لهاكم التكاثر^٣،

يا ابن مسعود و الذي بعثني بالحق ليأتي على الناس زمان يستحلون الخمر و يسمونه النبيذ عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين ، أنا منهم بري ء و هم مني براء، يا ابن مسعود الزاني بأمه أهون عند الله بأن يدخل في الربا^٤ مثقال حبة من خردل، و من شرب المسكر قليلا كان أو كثيرا فهو أشد عند الله من أكلة^٥ الربا لأنه مفتاح كل شر، [يا ابن مسعود] أولئك يظلمون الأبرار و يصدقون الفجار و الفسقة، الحق عندهم باطل و الباطل عندهم حق، هذا كله للدنيا و هم يعلمون أنهم على غير الحق و لكن زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون^٦،

يا ابن مسعود من رد عن ذكرى و ذكر الآخرة نقض له^٧ شيطانا فهو له قرين و إنهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قاليا ليت بيئي و بينك بعد المشركين فيئس القرين^٨، يا ابن مسعود إنهم ليعيبون على من يقتدي بسنتي و فراض الله تعالى، قال الله تعالى فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون^٩.

١. آل عمران / ٣٠.

٢. البقرة / ٢٠٦.

٣. التكاثر / ١.

٤. في مكارم الأخلاق: أ هو عند الله ممن يدخل في ماله من الربا.

٥. في مكارم الأخلاق: من أكل الربا.

٦. مأخوذة من سورة يونس / ٧-٨.

٧. في مكارم الأخلاق: يا ابن مسعود قال تعالى: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا.

٨. مأخوذة من سورة الزخرف / ٣٦-٣٨.

٩. المؤمنون / ١١٠-١١١.

يا ابن مسعود احذر سكر الخطيئة فإن للخطيئة سكرًا كسكر الشراب بل هو^١ أشد سكرًا منه، يقول الله تعالى صُمْ بِكُمْ عَمِيْ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ^٢ و يقولانَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا^٣، يا ابن مسعود الدنيا ملعونة ملعون من فيها، و ملعون من طلبها و أحبها و نصب لها، و تصديق ذلك في كتاب الله تعالى كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ^٤ و قولهم كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ^٥.

يا ابن مسعود إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً لأنه لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصاً فإنه يقولوا ما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجهه الأعلى . و لسوف يرضى^٦، يا ابن مسعود دع نعيم الدنيا و أكلها و حلاوتها، و حارها و باردها، و لينها و طيبها، و ألزم نفسك الصبر عنها، فإنك مسئول عن هذا كله، قال الله تعالى ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^٧.

[يا ابن مسعود] فلا تلهينك الدنيا و شهواتها فإن الله تعالى يقولاً فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ^٨ يا ابن مسعود إذا عملت عملاً من البر و أنت تريد بذلك غير الله فلا ترج بذلك منه ثواباً فإنه يقول فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً^٩.

يا ابن مسعود إذا مدحك الناس فقالوا: إنك تصوم النهار و تقوم الليل و أنت على غير ذلك فلا تفرح بذلك فإن الله تعالى يقول لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب و لهم عذاب أليم^{١٠} يا ابن مسعود أكثر من الصالحات و البر، فإن المحسن و المسيء يندمان يقول المحسن: يا ليتني ازددت من الحسنات، و يقول المسيء: قصرت، و تصديق ذلك [قوله تعالى] و لا أقسم بالنفس اللوامة^{١١}،

١. فى مكارم الأخلاق: هـ.

٢. البقرة / ١٨.

٣. الكهف / ٧ - ٨.

٤. الرحمن / ٢٦ - ٢٧.

٥. القصص / ٨٨.

٦. الليل / ١٩ - ٢١.

٧. التكاثر / ٨.

٨. المؤمنون / ١١٥.

٩. الكهف / ١٠٥.

١٠. آل عمران / ١٨٨.

١١. القيامة / ٢.

يا ابن مسعود لا تقدم الذنب و لا تؤخر التوبة و لكن قدم التوبة و آخر الذنب فإن الله تعالى يقول في كتابه هَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ^١ [يا ابن مسعود] و إياك أن تسن سنة بدعة، فإن العبد إذا سن سنة لحقه وزر^٢ ما عمل بها قال الله تعالى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ^٣ و قال سبحانه يَنْبِئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ آخَرَ^٤.

يا ابن مسعود فلا تركز إلى الدنيا و لا تطمئن إليها فستفارقها عن قليل، فإن الله تعالى يقول فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عِوْنٍ^٥، وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ^٦، يا ابن مسعود اذكر القرون الماضية و الملوك الجابرة الذين مضوا فإن الله تعالى يقولو عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا^٧

يا ابن مسعود انظر إلى أن تدع الذنب سرا و علانية، صغيرا و كبيرا، فإن الله تعالى حيث ما كنت يراكَ و هو معك فاجتنبها، يا ابن مسعود اتق الله في السر و العلانية، و البر و البحر، و الليل و النهار، فإنه يقولما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا^٨.

يا ابن مسعود اتخذ الشيطان عدوا فإن الله تعالى يقول إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا^٩ و يقول عن إبليس لَأَتَّبِعَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شِمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ^{١٠} و يقول قَالُوا لَقَدْ أَخَذَ لِنَا الْحَقَّ أَقُولَ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ^{١١} [يا ابن مسعود] فانظر أن لا تأكل الحرام و لا تلبس الحرام و لا تأخذ من الحرام و لا تعص الله لأن الله تعالى يقول لإبليس اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتِطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجُلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي

١. القيامة / ٥.

٢. فى مكارم الأخلاق: لحقه وزرها و وزر من عمل.

٣. يس / ١٢.

٤. القيامة / ١٣.

٥. الشعراء / ٥٧ و ١٤٨.

٦. الشعراء / ٥٧ و ١٤٨.

٧. الفرقان / ٣٨.

٨. المجادلة / ٧.

٩. فاطر / ٦.

١٠. الأعراف / ١٧.

١١. ص / ٨٤ - ٨٥.

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^١ وَقَالَ لَا تَتَرَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ^٢

يا ابن مسعود لا تقربن الحرام من المال و النساء فإن الله تعالى يقول لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ^٣ و لا تؤثرن الدنيا على الآخرة بالذات و الشهوات فإن الله تعالى يقول في كتابه قَامًا مَنْ طَغَى . و أثر الحياة الدنيا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى^٤ يعني الدنيا ملعونة و الملعون ما فيها إلا ما كان لله.

يا ابن مسعود لا تخونن أحدا في مال يضعه عندك أو أمانة ائتمنك عليها فإن الله تعالى يقول إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا^٥، يا ابن مسعود لا تتكلم إلا بالعلم بشي ء سمعته و رأيته فإن الله تعالى يقولو لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلًا^٦ و قالسُكَّتِبْ شَهَادَتَهُمْ وَ يُسْأَلُونَ^٧ و قَالَإِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^٨ و قالو نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^٩.

يا ابن مسعود لا تهتمن للرزق فإن الله تعالى يقولو مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا^{١٠} و قالو فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوْعَدُونَ^{١١} و قالإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{١٢}

يا ابن مسعود و الذي بعثني بالحق إن من يدع الدنيا و يقبل على تجارة الآخرة فإن الله تعالى يتجر له من وراء تجارتته و يربح الله تجارتته يقول الله تعالى رجالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ^{١٣}.

١. الإسراء / ٦٤.

٢. لقمان / ٣٣، فاطر / ٥.

٣. الرحمن / ٤٦.

٤. النازعات / ٣٧ - ٣٩.

٥. النساء / ٥٨.

٦. الإسراء / ٣٤.

٧. الزخرف / ١٩.

٨. ق / ١٧ - ١٨.

٩. ق / ١٥.

١٠. هود / ٦.

١١. الذاريات / ٢٢.

١٢. الأنعام / ١٧.

١٣. التور / ٣٧.

قال ابن مسعود بأبي أنت و أمي يا رسول الله كيف لي بتجارة الآخرة فقال: لا ترتجن^١ لسانك عن ذكر الله، و ذلك أن تقول: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، فهذه التجارة المربحة، يقول الله تعالى يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ. لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ و يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ^٢، يا ابن مسعود كلما أبصرته بعينك و استحلاه قلبك فاجعله لله فذلك تجارة الآخرة لأنه يقولما عندكم يَنْفَدُ و مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ^٣.

يا ابن مسعود إذا تكلمت بلا إله إلا الله و لم تعرف حقها فإنه مردود عليك، و لا يزال يقول لا إله إلا الله يرد غضب الله عن العباد حتى إذا لم يبالوا ما ينقص من دينهم بعد إذ سلمت دنياهم، يقول الله: كذبتكم كذبتكم لستم بها بصادقين فإنه يقول الله تعالى إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ و الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^٤، يا ابن مسعود أحب الصالحين فإن المرء مع من أحب، فإن لم تقدر على أعمال البر فأحب العلماء فإن الله تعالى يقولو مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ و الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ و الصَّادِقِينَ و الشُّهَدَاءِ و الصَّالِحِينَ و حَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا^٥،

يا ابن مسعود إياك أن تشرك بالله طرفة عين و إن نشرت بالمنشار أو قطعت أو صلبت أو أحرقت بالنار يقول الله تعالى و الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ و رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ و الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ^٦.

يا ابن مسعود اصبر مع الذين يذكرون الله و يسبحونه و يهللونه و يحمدهونه و يعملون بطاعته و يدعونه بكرة و عشيا فإن الله تعالى يقولو اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ و الْعِشِيِّ يَرْيدُونَ وَجْهَهُ و لا تعد عيناك عنهم^٧،

١. في مكارم الأخلاق: لا تريحن.

٢. فاطر / ٢٩ - ٣٠.

٣. النحل / ٩٦.

٤. فاطر / ١٠.

٥. النساء / ٦٩.

٦. الحديد / ١٩.

٧. الكهف / ٢٨. و في البحار ج ٧٧، ص ١٠٧ بعد هذه الآية آية من سورة الأنعام / ٥٢ فراجع.

يا ابن مسعود لا تختارن على ذكر الله شيئا فإنه يقولو لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ^١ و يقولفأذكروني أذكركم و أشكروا لي و لا تكفرون^٢ و يقولو إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان^٣ و يقولادعوني أستجب لكم^٤.

يا ابن مسعود عليك بالسكينة و الوقار و كن سهلا لنا عفيفا مسلما تقيا نقيا بارا طاهرا مطهرا صادقا خالصا سليما صحيحا لبيبا صالحا شكورا مؤمنا ورعا عابدا زاهدا رحيما عالما فقيها يقول الله تعالى إن إبراهيم لحليم أواه منيب^٥ - و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. و الذين يبيتون لرَبِّهم سجدا و قياما. و يقولون للناس حسنا و إذا مروا باللغو مروا كراما. [و الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما و عميانا.] و الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرّة أعين و اجعل لنا للمتقين إماما. أولئك يجزون العرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية و سلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا و مقاما^٦ يقول الله تعالى قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. و الذين هم عن اللغو معرضون. و الذين هم للزكاة فاعلون. و الذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون. و الذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون^٧ يقول الله تعالى أولئك في جنات مكرمون^٨ و قالإنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - إلى قوله- أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم و مغفرة و رزق كريم^٩.

١. العنكبوت / ٤٥.

٢. البقرة / ١٥٢.

٣. البقرة / ١٨٦.

٤. المؤمن / ٦٠.

٥. هود / ٧٥.

٦. الفرقان / ٦٣ - ٦٤.

٧. الفرقان / ٧٢ - ٧٦.

٨. المؤمنون / ١ - ١١.

٩. المعارج / ٣٥.

١٠. الأنفال / ٢ - ٤.

يا ابن مسعود لا تحملنك الشفقة على أهلك وولدك على الدخول في المعاصي و الحرام، فإن الله تعالى يقول: **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**^١ و عليك بذكر الله و العمل الصالح فإن الله تعالى يقول: **الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمْلاً**^٢،

يا ابن مسعود لا تكونن ممن يهدي الناس إلى الخير و يأمرهم بالخير و هو غافل عنه يقول الله تعالى: **تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**^٣،

يا ابن مسعود عليك بحفظ لسانك فإن الله تعالى يقول: **لَيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تَكَلَّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**^٤،

يا ابن مسعود عليك بالسرائر فإن الله تعالى يقول: **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ**^٥، يا ابن مسعود احذر يوما تنشر فيه الصحائف و يفصح^٦ فيه الفضائح فإنه تعالى يقول: **نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**^٧،

يا ابن مسعود اخش الله تعالى بالغيب كأنك تراه فإن لم تك تراه فإنه يراك و يقول الله تعالى: **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ. ادْخُلْهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**^٨،

يا ابن مسعود أنصف الناس من نفسك و أنصح الأمة و ارحمهم، فإذا كنت كذلك و غضب الله على أهل بلده و أنت فيها و أراد أن ينزل عليهم العذاب نظر إليك فرحمهم بك يقول الله تعالى: **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصِلِحُونَ**^٩،

يا ابن مسعود إياك أن تظهر من نفسك الخشوع و التواضع للأدمنين و أنت فيما بينك و بين ربك مصر على المعاصي و الذنوب يقول الله تعالى: **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ**^{١٠}،

١. الشعراء / ٨٨ - ٨٩.

٢. الكهف / ٤٦.

٣. البقرة / ٤٤.

٤. يس / ٦٥.

٥. الطارق / ٩ - ١٠.

٦. في مكارم الأخلاق: و تظهر.

٧. الأنبياء / ٤٧.

٨. ق / ٣٣ - ٣٤.

٩. هود / ١١٧.

١٠. المؤمن / ١٩.

يا ابن مسعود فلا تكن ممن يشدد على الناس و يخفف على نفسه يقول الله تعالى لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ^١،

يا ابن مسعود إذا عملت عملاً فاعمل بعلم و عقل و إياك و أن تعمل عملاً بغير تدبير و علم فإنه جل جلاله يقولو لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا^٢،

يا ابن مسعود عليك بالصدق و لا تخرجن من فيك كذبة أبداً، و أنصف الناس من نفسك و أحسن، و ادع الناس إلى الإحسان، و صل رحمك و لا تمكر الناس، و أوف الناس بما عاهدتهم فإن الله تعالى يقول إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^٣.

١. الصف / ٢.

٢. النحل / ٩٢.

٣. النحل / ٩٠.